

لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين المchorة
<https://palstinebooks.blogspot.com>

المروء في الشعر الجاهلي



دكتور / محسن احمد عبد الحفيظ عبد السلام

المؤن في الشعر الجاهلي

تأليف

دكتور
حسين العزب عبد العزيز السالفي

المدرس بقسم الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١١ - ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف جامع الازهر

فِقدَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي امتحن الانسان بالحياة ، وجعل الموت مصيره والآخرة منتهاه ، والصلة والسلام على سيدنا محمد ، الرحمة المهدأة ، والنعمة المسداة ، وعلى الله وصحبه ومن والاه . . . وبعد

فلقد شغلت منذ وقت غير قصير بفكرة هذا البحث (رؤية الشاعر الجاهلي للموت واحساسه به وعقیدته فيه) .

وما زالت الفكرة تراودنى ، تجىء وتذهب ، وتلوح وتغمض ، حتى قدر الله لي أن أعيش بعض الزمن في أحدى مناطق شبه جزيرة العرب ، فملأت عيني من مظاهرها الطبيعية ، وأحسست بنفسي بعض ظواهرها المناخية ، وسرحت بخواطري لتخيل أهل هذه المناطق كيف كانوا يعيشون ؟ وبماذا كانوا يشعرون ؟ قبل الاختراعات الحديثة التي ذلت الصعب وعمرت الياب . فتبlierت الفكرة واستقرت ، وأقامت ولم تذهب ، وأيقنت بأنه لا بد أن يكون الجاهليون أحسوا بالموت احساسا شديدا ، وقد كانوا يلاقونه في كل وقت ، ويتخيلونه في كل شبر .

فقويت عزيمتي ، ومضت ارادتى للكتابة في هذا الموضوع ، ففرحت أبحث عن الدوافع التي يمكن أن تزيد احساسهم بالموت - وأنا أعلم أن كراهية الموت جزء من فطرة الانسان ، وأن حب البقاء جبلة في طبعه - لكن الذي يزيد من هذه الكراهية ويضاعف القلق والخوف من ذهاب الحياة هو ما بحثت عنه عند الجاهليين ، وقد اهديت الى

أن العوامل البيئية والظروف المعيشية والعوامل المتولدة من حياة الصحراء أسممت بقدر كبير في زينة احساس الجاهليين بالموت ، لكن العامل الأقوى كان افتقادهم الدين الصحيح واليقين بالأخرة ، فهما كفيلان بأن يغمران النفس بالظلمانية ؛ ويملاها بالرضا والأمل ، وكل ذلك لم يكن عند الجاهليين .

ثم تتبع أشعارهم التي عبرت عن موقفهم من الموت وحملت احساسهم به ، وصنفتها إلى ثلاثة أنماط هي : رثاء النفس - ورثاء الآخرين - والحكمة .

ولقد ظهر لى أن شعراء كثيرين رثوا أنفسهم في الجاهلية ، منهم الفارس الذي بكى نفسه وهو يحتضر بعد اصابته في غارة ، أو ناح عليها ، وهو أسير ينتظر الموت ، ومنهم الشيخ الهرم الذي ذهبت قوته ، وأوشكت نهايته ، ومنهم المشهور ، وكثير منهم مغمور ، فترجمت لهم جميعا وأثبتت أشعارهم التي رثوا فيها أنفسهم .

وفي رثاء الآخرين انتقى النصوص التي يظهر فيها احساس الشعرا بالموت ، حتى لا تخرج الدراسة عن اطارها المرسوم لها ، ثم نظرت في شعر الحكمة الذي تناولوا فيه قضية الموت ، واستخرجت منه عقيدتهم فيه ورؤيتهم له .

ثم درست بعد ذلك الخصائص الموضوعية والفنية لشعر الموت . - وبعد فاني أعتقد أن هذه الدراسة تكتب مزيدا من الضوء على حياة العرب في العصر الجاهلي ، وتجلی جانبها من مشاعرهم وتقدم صورة لخواطرهم وأفكارهم في مواجهة الموت .

وأرجو أن تكون هذه الدراسة اضافة مفيدة وموثقة فان تحقق
الرجاء ، فالحمد لله على توفيقه وتسديده ، وان لم يتحقق فحسبى
أنى لم أدخل وسعا ، ولم ^{أُلْوَّجْهَا} جهدا ، والله المستعان .

د ٠ حسن عبد السلام

٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٤١١ هـ

١٢ من نوفمبر سنة ١٩٩٠ م

الباب الأول

عوامل الاحساس بالموت عند الجاهليين

الفصل الأول : طبيعة بيئة الصحراء .

الفصل الثاني : الحروب .

الفصل الثالث : الرحلات .

الفصل الرابع : افتقادهم الدين الصحيح .

الفصل الأول

طبيعة بيئه الصحراء

تؤثر كل بيئه فى أصحابها ، وتطبع تفكيرهم بطبعها ، وتتحلى
اليهم بكثير من أفكارهم ، وتصبح الى حد بعيد مشاعرهم وأحساسهم
بصيغتها . يقول الاستاذ الزيات : « ولجو الاقليم اثر طبيعى في حياة
أهلها ، فهو الذى ينجز لهم سنن معاشهم ونظام اجتماعهم ويكون الكثير
الغالب من أخلاقهم وطبعهم » (١) .

وبيئة العرب قبل الاسلام هي بيئه صحراء شبه الجزيرة التي
أثرت في سائر نواحي حياتهم المادية والفكرية والعاطفية .
في ذلك العصر لم يكن بوسع الانسان أن يسيطر على هذه الصحراء
ليتجنب الكثير من أخطارها ، ولم يكن له بد من الشغور بالرهبة أمام
اتساعها وترامي أطرافها ، وبالخوف من صعوبة طبيعتها ووعورة
مسالكها ، وبالريبة مما تخفيه تلك الصحراء وراء جبالها وخلف
هضابها وداخل أغوارها .

ان هذا الاحساس بالصحراء هو الاحساس الطبيعي الذي يشتراك
فيه اغلب من عاش في تلك البيئة وان ادعى بعضهم خلافه شجاعة
وقوة .

بل انى لاظن ان الحديث الطويل عن الشجاعة والجسارة فى

(١) احمد حسن الزيات : تاريخ الادب العربي ص ٨ .

مواجهة تلك البيئة - كما نجد في الأدب الجاهلي - هو محاولة من الإنسان أن يتقوى ويصبر على مقاومة هذه البيئة الجباره
والانتصار عليها .

اننا في عصر الكهرباء والطائرة نشعر بكثير من الوحشة اذا تأملنا طبيعة شبه الجزيرة العربية ، وبقليل من التخييل يستطيع المرء أن يدرك مدى ما كان يعانيه الجاهليون في مواجهة بيئتهم .
في عصر الناقة والشاة والفرس واجه العرب بيئه الصحراء
وعاشوا فيها بالخوف وبالحلم وبالحرب وبالشعر .

ويحسن بنا - ليتحول تخيلنا إلى حقيقة - أن نعرف صفة شبه الجزيرة العربية وأن نقف على سمات التضاريس والمناخ فيها كما رصدها المتخصصون (١) .

١ - التضاريس :

ينقسم سطح شبه الجزيرة العربية إلى الأقسام الآتية :

— سهول تهامة : وهى سهول ساحلية تمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ويختلف اتساعها من مكان إلى آخر ، وهى سهول رملية وحصوية ، تنتشر المنصهرات البركانية في بعض أجزائها ، وتجرى بها الوديان القصيرة التي تفيض بالياب عقب سقوط الأمطار ، وتصب في البحر الأحمر .

(٢) استقيت المعلومات في هذا البحث من كتاب جغرافية شبه جزيرة العرب ، ج ١ للدكتور محمود طه أبو العلا . ص ١٨ ، ٣٩ وما بعدها ط ١٢ - الانجلو المصرية ١٩٧٧ م .

— المرتفعات الغربية : تمتد هذه المرتفعات موازية لسهول تهامة ، فتقع السهول بين الجبال والبحر الأحمر ، وتنسج المسافة بين المرتفعات والبحر حتى تبلغ أربعين كيلو مترا في بعض المناطق ، وتضيق حتى تكاد تشرف المرتفعات على البحر مباشرة ، وتنقسم سلاسل المرتفعات هذه إلى ثلاثة أقسام هي :

(أ) مرتفعات الحجاز أو السراة : ويطلق هذا الاسم على الجزء الممتد من رأس خليج العقبة جنوبا حتى عرض ٢٠ درجة شمالا ، وتتكون هذه للارتفاعات من عدة سلاسل جبلية تتخللها الوديان الطويلة وبها ينابيع تغذيها المياه الجوفية ، وت تكون الجبال من صخور نارية ، وتكثر بها الوديان الجبلية والثنيات المنخفضة والكتل الانكسارية ، وتغطي الصخور البركانية بعض أجزائها .

(ب) مرتفعات عسير : وهي أكثر ارتفاعا من جبال الحجاز إذ يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف وعشرة ألف قدم ، والوديان فيها أكثر ماء وأكثر عددا من وديان جبال الحجاز نظرا لغزارة الأمطار بها ، وتمتد هذه الوديان من مرتفعات عسير إلى ساحل البحر الأحمر في تهامة عسير التي لا يزيد اتساعها كثيرا عن تهامة الحجاز .

(ج) مرتفعات اليمن : وهي أشد ارتفاعا وأكثر امتدادا نحو الشرق من المرتفعات السابقة إذ تصل بعض قممها إلى أربعة عشر ألف قدم ، ويتراوح ارتفاعها - عامة - بين سبعة آلاف وعشرة آلاف قدم ، ويتردرج انحدار هضبة اليمن نحو الشرق ويزداد انحدارها نحو الغرب إلى السهل الساحلي (تهامة اليمن)

وتمتد الوديان من حافة الهضبة الى السهل الساحلي الذى تكثر به السبخات والمستنقعات بجوار ساحل البحر الاحمر ، وتمتد هذه الوديان جهة الشرق حتى تنتهى فى رمال الربع الحالى .

— **الهضاب الغربية :** وهى الهضاب التى تلى المرتفعات الغربية فى منطقة جبال السراة من جهة الشرق وهى : هضبة الحسمى ، وتقع فى أقصى الشمال ويبلغ متوسط ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم وينحدر سطحها الى الشرق والشمال أيضا .

وهضبة عسير : وتقع جنوب هضبة الحجاز وهى أكثر تلك الهضاب ارتفاعا اذ يصل ارتفاعها ستة آلاف قدم ، وتقع بها أودية كثيرة .

— **السهول والمرتفعات الجنوبية :** وتنحدر هذه المرتفعات من الغرب الى الشرق ، والاجزاء الغربية منها أقل ارتفاعا من هضبة اليمن بقليل ، ويقل الارتفاع من جهة الشرق ليتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وستمائة قدم ، ويمتد وادى حضرموت فى هذه المرتفعات موازيا لساحل البحر العربى ، ثم ينحدر فجأة الى الجنوب الشرقي ويصب فى البحر العربى .

— **اقليم مرتفعات عمان :** ويقع هذا الاقليم فى أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، وتحتلت بنيته عن سائر اجزاء شبه الجزيرة ، وتت تكون مرتفعات عمان من الصخور الرسوبيه التى تعرضت لكثير من حركات القشرة الأرضية والتى أدت الى تكوين انكسارات وفوالق نتجت عنها الأودية الانكسارية والكتل القافية فى أقصى شمال المرتفعات ، وتأخذ مرتفعات عمان شكل هضبة يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف قدم ، وأعلى اجزائها حافة يتراوح ارتفاعها بين عشرة آلاف وتسعة آلاف قدم ، وتقع الوديان الهضبة

إلى الشرق متوجهة إلى خليج عمان أو إلى الغرب حيث تضيق
مياهها في رمال الربع الخالي .

— الأجزاء الوسطى : وأهم هذه الأجزاء هضبة نجد ، والنفود
الكبير ، والربع الخالي .

وتمتد هضبة نجد من المرتفعات الغربية غربا إلى هضبة
الصمان شرقا ومن النفود الكبير شمالا حتى الربع الخالي جنوبا ،
ويبلغ أقصى ارتفاعها في الغرب ، ويقل تدريجيا نحو الشرق ،
ومتوسط ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم . وتقع في هضبة نجد جبال
طويق وهي على هيئة قوس يرتفع إلى ثلاثة آلاف وخمسين
قدم ، وجبال شمر التي تقع في الشمال الغربي للهضبة ، ومتوسط
ارتفاعها خمسة آلاف قدم . ويقع في هضبة نجد أيضا نطاق الدهناء
الرملي الذي يتراوح ارتفاعه بين ألف وخمسمائة ، والذى قدم ،
وتجرى في الهضبة عدة أودية . أما النفود الكبير فهو على
شكل مثلث قاعدته في الغرب ورأسه في الشرق ، وتغطي الكثبان
الرملية الكثيفة الحوض الذي يشغل هذا الجزء ، وهي في الغرب
والجنوب أكثر منها ارتفاعا في الشرق والشمال . أما الربع
الخالي فهو منطقة رملية واسعة تمتد من سفوح المرتفعات
الغربية غربا إلى سفوح مرتفعات عمان شرقا ، ومن هضبة نجد
شمالا إلى هضبة حضرموت في الجنوب ، وتملا الكثبان الرملية
الربع الخالي ، وتأخذ أشكالا مختلفة ، فمنها المتحرك ومنها
الثابت ، وهي أكثر ارتفاعا في الجنوب والغرب منها في
الشمال والشرق .

— حوض وادى سرحان : ويقع هذا الحوض غرب منطقة النفود الكبير وقد تكون نتيجة حدوث انكسارين كان اتجاه أحدها من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى واتجاه الآخر من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى .

— سهول الاحساء : وتقع فى شرقى شبه الجزيرة العربية ، وهى تنحدر من الشرق والى الشمال الشرقى وتمتد بها التكوينات الرملية .

٢ - المناخ :

أدى تنوع التضاريس فى شبه جزيرة العرب بين جبال مرتفعة ووديان منخفضة وسهول الى اختلاف مناخى بين أجزائها ، فالحرارة ترتفع جدا فى الأجزاء الداخلية وفى المناطق المنخفضة صيفا ، بينما تكون أقل ارتفاعا فى المناطق الساحلية والمرتفعات . ويغلف المناخ الصحراوى شبه الجزيرة كلها ما عدا الجزء الجنوبي الغربى منها ، وترتفع درجة الحرارة صيفا حتى يبلغ متوسط نهايتها العظمى ستة وأربعين درجة ، وتنخفض فى الشتاء الى ما يقرب من درجة الصفر ، وتزداد الرطوبة النسبية شتاوى فى المناطق الساحلية اذ يصل معدلها سبعين فى المائة ، وتقل هذه النسبة فى المناطق الداخلية حيث يصل معدلها خمسين فى المائة ، وتنخفض هذه النسبة فى الصيف اذ يصل معدلها فى المناطق الساحلية خمسين فى المائة وفى المناطق الداخلية ثلاثين فى المائة .

وتهدى الرياح والعواصف الرملية ، التى كثيرة ما تضر بالانسان والحيوان فى شبه جزيرة العرب .

وقد يتغير اتجاه الريح بين وقت وآخر ، والعرب تسمى الرياح التي تهب من جهات مختلفة الرياح المتذبذبة تشبيها لها بالذئب وقد يكون ملحوظ هذا التشبيه الفعل (الاتيان من جهات مختلفة) أو الصوت اذ تحدث الرياح الشديدة أصواتاً أشبه ما تكون بعواء الذئب .

ويتولد من الصحراء عوامل أخرى جعلت الاحساس بالموت عند الجاهليين قويا ، فالمصدر الوحيد للمياه في شبه جزيرتهم كان المطر والعيون ، والماء هو سر الحياة وعمادها ، وفي حياة تعتمد على الرعى في أكثر الأماكن ومعظم الأحيان يصبح الماء ثروة ثمينة تشتعل بسببها الحروب ، فقلة الخير والشح بأسباب الحياة من طعام وشراب كان هو الطابع العام الغالب على شبه جزيرة العرب .

إذا أضيف إلى ذلك حرارة الجو في الصيف بدرجة عالية ، وضرورة الترحل من مكان إلى آخر بحثاً عن العشب ، مع وعورة المسالك وصعوبة الطرق وندرة الظل وقلة الأشجار عرفنا إلى أي حد كان الاحساس بالموت والخوف من الهلاك يملأ حياة الصحراء . والخوف من الهلاك في تلك البيئة لا يقل في الشتاء عنه في الصيف فقد يأتي المطر سيولاً مهلكة ، وقد يندر حتى يتبدد الأمل في أن ينبع زرع أو يدر ضرع .

وفي الشتاء يسد الضباب الأفق في بعض الأماكن - أحياناً - حتى يشتبه النهار بالليل ، فتتغدر الرؤية ويصبح الهلاك أمراً محتملاً بسبب ما يمكن حدوثه في تلك الأجزاء من اصطدام بحجر أو سقوط في واد أو غير ذلك .

وقد يشتد البرد حاملاً معه الحمى ونذر الموت في بعض الأحيان . ومن العوامل التي تولدت من الصحراء ، وزادت من احساس الجاهلي

بالموت بذلك ، انتشار أنواع الحيوان المفترس في تلك البيئة كالأسد والذئاب والضبع ، وأنواع الحشرات القاتلة كالحيات والثعابين ، ثم ما كان يتخيله ساكنو الصحراء من أشباح وأرواح وجن ومخلوقات لا يرونها ، لكنهم كانوا يعتقدون أنها تسرح في صحرائهم وتصبح فتملاً الجو من حولهم بالفزع والرعب .

ولقد صور الشعرا الجاهليون هذه الصحراء الرهيبة التي يتخيل الموت كامنا في كل شبر منها ، ووصفوها بما رأوه فيها ، وبما تخيلوه منها . وعبروا عن احساسهم بذلك كله ، وألحوا على العوامل التي سبق الحديث عنها - أحياناً - وصرحوا بها في كثير من الأحيان .

يقول الأعشى في معلقته (٣) :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة	ل الجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتتنمى لها بالقيظ يركبها	الا الذين لهم فيما اتوا مهل
جاوزتها بطليح جسرا سرح	في مرافقها اذا استعرضتها فتل

(والبلدة : القطعة من الأرض . وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . الرجل : الصوت . حافاتها : نواحيها : يتتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر . طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسرا : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة) .

وبيئة بهذا الوصف تتطلب من أهلها اعداد الرواحل القوية

(٣) راجع شرح القصائد العشر للtribizzi من ٣٤٠ ، تحقيق عبد السلام الحوفي - دار الكتب العلمية - بيروت .

الشديدة التي تصبر على العطش والجوع ، وتحتمل مشقة السير في تلك الأرض الصعبة وتقدر على الصعود والهبوط ، ولهذا أبدع الجاهليون في وصف نوqهم التي كانوا يسافرون عليها ، ووصفوها بالقوة والسرعة والتحمل والصبر .

في أبيات أخرى للأعشى . يصور الفلاة مقفرة شحيحة بالخير ، لا تجد الإبل فيها ما تطعمه ، فتسلى بالاجترار ، ويقول انه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة شديدة ، كانت ترجم المرتفعات باخفاها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شقا ، ثم يشبهها بحمار الوحش وبشورة في السرعة والنشاط .

يقول الأعشى (٤) :

وفلاة كأنها ظهر ترس
ليس الا الرجيع فيها علاق
قد تجاوزتها وتحتى مروح
عنريس نعابة معناق
عرمس ترجم الأكام باخفا
ف صلاب منها الحصى آفلاق
ويصف سعيد بن أبي كاهل (٥) الصحراء وما يتراءى فيها من
سراب خادع يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه له يجده شيئاً ،
وما يطير خلالها من رياح حارة تصيب الرأس بالدوار ، فيقول (٦) :
١ - كم قطعنا دون سلمى مهمها نازح الغسور اذا اذل لمع

(٤) انظر : العصر الجاهلي ، د . شوقى ضيف ص ٣٥٤ .

(٥) سعيد بن أبي كاهل شاعر مخضرم أدرك الاسلام وعاش في الجاهلية دهراً .

(٦) انظر شرح المفضليات : تحقيق على محمد البجاوى ، القسم الثاني ص ٢٠٩ .

(المهمه : الفقر . وقوله : دون سلمى ، أى مهمها قاصراً عن بلاد سلمى بعيد الغور . والمعنى : كم من مفازة ركبناها وقطعنها بعدنا عن هذه المرأة حتى وصلنا إليها . واذ الآل : ظرف لقطعنا ، يزيد قطعنا الشقة إليها في الهاجرة) .

٢ - في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع (الحرور : يكون بالليل والنهار ، وهو فعل من الريح الحارة . وقوله : ينضج اللحم بها : من صفة الحرور . والصقع : حرارة تصيب الرأس ، وأصله الضرب على الشيء اليابس ، وقيل : الصقع دوران في الرأس .

٣ - وتخطيت إليها من عدا بزماء الأمر والهم الكتع (المعنى : وكم تخطيت إليها من عدا - وزماء الأمر : الأخذ فيه . والهم الكتع : يعني الهم الملائم) .

٤ - وفلاة واضح أقربها باليات مثل مرفت القزع (الأقرب : الخواصر ، وهو هنا تشبيه ، أراد جوانبها وأطرافها التي هي منها بمنزلة الخواصر من الناس ، وجعلها واضحة لبيانها ، وباليات : حال . وشبهها بما ارتفت من السحاب أى تكسر وصار رفاتا ، وكذلك القزع ، واحتتها قزعة ، وهى قطع الشعر المتفرقة) .

٥ - يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد اذا اليوم متئع (الآل : السراب . والأعلام : الجبال . والبيد : جمع بيداء وهي القفر ، ومتاع النهار : اذا ارتفع) .

٦ - فركبناها على مجدهما بصلب الأرض فيهن شجع (اعتسفناها على غير قصد وهداية . وصلب الأرض : الخيل) .

اما امرؤ القيس فيصف الصحراء فى الشتاء ، مصوراً أمطارها الغزيرة وسيلها المهلكة التي تجرف في طريقها جذوع النخل ، وتهدم البيوت وتفرق السباع ، وتفرز الوعول ، وتلقى في نفس الانسان بالفرز والخوف من الهاك فيقول (٧) :

أصحاب ترى برقا كان وميضه	كلمع اليدين في حبي مكمل (٨)
يضيء سناه او مصابيح راهب	أهان السليط في الذبال المقتل (٩)
قعدت له وصحتى بين فسارج	وبين اكام بعدما متامل (١٠)
وأضحي يسح الماء عن كل فيقة	يكب على الاذقان دوح الكنهيل (١١)
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا اطمما الا مشيدا بجندل (١٢)
كان طمية الجيمر غدوة	من السيل والغثاء فلكة مغزل (١٣)
كان ابانا في افانيين ودقة	كبير اناس في بجاد مزمول (١٤)

(٧) الآبيات من معلقته : راجع شرح المعلقات السابع للزوزنى ص ٣٠ -
والعصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ، وشرح القصائد السابعة الطوال
للأنبارى وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ، وشرح المعلقات
للتبريزى .

(٨) صاح : ترخيم صاحب . وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب:
المتراكم ، او الدانى من الأرض . المكمل : المتراكم أيضاً .

(٩) السليط : الزيت . الذبال : الفتائل ، وأهان السليط : يعني أكثر من
الزيت ، كنایة عن شدة الضوء .

(١٠) ضارج وacam : موضعان .

(١١) الفيقة : ما بين الحلبتين . يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح وهكذا .
وعن هنا بمعنى بعد . يكب على الاذقان : يلقى على الوجه .
والكنهيل : شجر العضة العظيم . والدوح : الشجر الكثير الأغصان
والورق . (١٢) الأطم : البيت .

(١٣) طمية : جبل الجيمر : مكان . الغثاء : ما يحمله السيل .
المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(١٤) ابان : جبل . افانيين : ضروب . الودق : المطر . البجاد : كساء
مخطط .

والقى بصحراء الغبيط بعاعه

نزول اليمانى ذى العياب المخول (١٥)

كان سباعا فيه غرقى غدية

بارجائه القصوى أنا比ش عنصل (١٦)

على قطن بالشيم ايمن صوبه وأيسره على السنار فيذبل (١٧)

القى ببسیان فى الليل بركه فائزل منه العصم من كل منزل

فى الآبيات السابقة وصف امرؤ القيس البرق الذى يلمع وسط السحاب المتراكم ، وهو يسبق المطر الشديد - غالبا - وتحدث عن السيل المنهر الذى جرف كل شىء فى طريقة ، واقتلاع الأشجار من جذورها وهدم البيوت الا ما شيد بالصخر منها ، وأشار الى ما يحمله السيل من غثاء ، يلقىه على الأرض والجبال فيخططها ويلونها ، فتبعدو كأنها فرشت بالبرود الزاهية الألوان ، ويتراءى جبل أبان بعد أن غطاه السيل بغشاهه وأوراق الشجر التى يحملها مثل شيخ ملتف فى حسام مخطط . ووصف الشاعر السابع الذى أغرقها السيل ، وهى ترفع رؤوسها مخافة الغرق فتظهر تلك الرعوس كأنها جذور البصل البرى، والوعسول التى نزلت من منازلها فوق الجبال هربا من الغرق .

واخبر الشاعر أن السحاب كان يسد الأفق حتى يظن من يراه أنه
ممتد من ديار بني أسد الى ما وراء بلاد البحرين .

(١٥) الغبيط : موضع . بعاعه : ثقله . العياب : الحقائب . المخول :
كثير المتع .

(١٦) غدية : فى الصباح . أنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

(١٧) قطن : اسم جبل فى ديار بني أسد . الشيم : النظـ رالى البرق
. والمطر . السنار . فيذبل : جبلان .

وتبدو الصحراء في شعر عمرو بن معد يكتب واسعة مهلكة للمطى ، يريض بها الذؤبان ، وتصبح بها الجنان ، وتتناثر على جوانبها الأشلاء والمعظام فيقول (١٨) :

فكم من غائط من دون سلمى

قليل الانس ليس به كتيع
به السرحان مفترشا يديه كان بياض لثته الصديع
وارض قد قطعت بها الهواهى من الجنان سربخها مليع
ترى جيف المطى بحافتيه كان عظامها الرخام الوقع
وللمرقش الأكبر (١٩) وصف جيد للصحراء ، يرينا إلى أي مدى كانت هذه الصحراء مرهوبة موحشة ، فهى قفر يدوى فيها الصوت لخلائها ، عبراء مهلكة تصيح فى أرجائها البوم ، وتنضى فى قطعها الناقة ، وتسرح بها الذئاب الجائعة ، جبالها شاهقة عبراء ، وليلها دامس طويل ، ورياحها شديدة مؤذية .

يقول المرقش الأكبر (٢٠) :

(١٨) انظر الأصمليات ص ١٧٦ ، الغائط : المطمئن من الأرض الواسع .
كتيع : أحد . السرحان : الذئب : اللبة : وسط الصدر . الصديع :
الصبح . الهواهى : ضوضاء الجن . الواحد هوهاة . السربخ :
ما بينها وبين أرض أخرى . المليع : الواسع من الأرض .

(١٩) شاعر جاهلى عاصر المهلل وشهد حرب البوس ، واسمها عمرو
ابن سعد بن مالك ، والمرقش لقبه .
(٢٠) شرح المفضليات : القسم الثاني ص ٨٢٢ .

ودوية غبراء قد طال عهدها
تهالك فيها الورد والمرء ناعس (٢١)

قطعت الى معروفها منكراتها
بعيhamة تنسل والليل دامس (٢٢)

تركـت بها ليلا طويلا ومنـزلا
ومـوقـد نـار لم تـرـمـه القـوابـسـ (٢٣)

وتسـمعـ تـرقـاءـ منـ الـبـومـ حـولـنـاـ
كـماـ ضـربـتـ بـعـدـ الـهـدوـءـ النـوـاقـسـ (٢٤)

وتصـبـحـ كالـدـوـدـاـ نـادـيـ زـامـهـاـ
إـلـىـ شـعـبـ فـيـهاـ الجـوارـيـ العـوـانـسـ (٢٥)

ولـاـ أـضـأـنـاـ النـارـ عـنـدـ نـزـولـنـاـ
عـرـانـاـ عـلـيـهـاـ أـطـلسـ الـلـوـنـ باـئـسـ (٢٦)

نبـذـتـ إـلـيـهـ فـلـذـةـ مـنـ شـوـائـنـاـ
حـيـاءـ وـمـاـ فـحـشـىـ عـلـىـ مـنـ أـجـالـسـ (٢٧)

(٢١) دوية : منسوية الى الدو ، وهى القفر التى يدوى فيها الصوت لخلائها ، تهالك : تسرع السير ، والورد هنا : الابل يعني الواردة والتقدير ذو الورد .

(٢٢) قطعت ما لا يعرف من هذه الصحراء حتى صرت الى ما يعرف .
العيhamة : الناقة القوية الجريئة تنسل : أى تنفذ نفاذـاـ حـثـيـثـاـ .

(٢٣) تركـتـ بهاـ ..ـ الخـ .ـ قـطـعـتـهاـ وـقـدـ بـقـيـتـ منـ اللـيلـ بـقـيـةـ ،ـ وـقـولـهـ :ـ لـمـ تـرـمـهـ القـوابـسـ :ـ لـأـنـهـ كـانـ وـحـدـهـ لـأـنـيـسـ لـهـ الـأـوـحـشـ .ـ

(٢٤) الترقـاءـ :ـ تـفـعـلـ مـنـ الـفـقـاءـ وـهـوـ صـوتـ الـبـومـ .ـ

(٢٥) الدودـاةـ :ـ الـأـرـجوـحةـ ،ـ يـقـولـ :ـ تـصـبـحـ النـاقـةـ وـكـانـهاـ لـاـضـطـرـابـهاـ أـرـجوـحةـ الصـبـيـانـ ،ـ وـمـرـادـ أـنـ المـنـزـلـ الـذـيـ نـزـلـهـ كـانـ مـحبـ سـوءـ كـانـ هـوـ وـنـاقـتـهـ فـيـ اـضـطـرـابـ شـدـيدـ .ـ

(٢٦) أـطـلسـ باـئـسـ :ـ ذـئـبـ جـائـعـ .ـ

(٢٧) نـبـذـتـ :ـ بـمـيـتـ .ـ فـلـذـةـ :ـ قـطـعـةـ .ـ

فاض بها جذلان ينفض رأسه
كما آب بالنهب الكمي المخالس (٢٨)
واعرض أعلام كان رعوتها
رعوس رجال في خليج تفامس (٢٩)

اذا علم خلقة يهتدى به
بدا علم في الآل اغبر طامس (٣٠)
اما الصحراء عند بشر بن أبي خازم فهى خرق مخوف ، تعزف
فيه الجنان ، وتهب خلاله الرياح الشديدة الحرارة ، ويلمع فيه
السراب ، هذه الصحراء الرهيبة كان الشاعر يقطعاها بناقتة فتبريهما
وتذهب لحمها وشحمة وقوتها .

يقول بشر (٣١) :

١ - وخرق تعزف الجنان فيه فيافيه يخربها السهام
(السهام : شيء أبيض يسقط من السماء اذا حميت الشمس وانتصف
النهار) . ويروى : يطير بها السهام ، وقالوا : معناه تهب بها رياح
شديدة التأثير حرارة .

٢ - ذعرت ظباءة متغيرات اذا ادرعت لومعها الاكام

(٢٨) آض : رجع . جذلان : فرحا . الكمي : الشجاع .

(٢٩) اعرض : أى أبدى عرضه . والاعلام : الجبال . الخليج : النهر ،
والمراد به هنا السراب .

(٣٠) الآل : السراب .

(٣١) بشر بن أبي خازم من شعراء الجاهلية الفرسان ، من قبيلة بني
أسد مات قبل الاسلام ، وضعه ابن اسلام في الطبقة الثانية من
الفحول . والآبيات ديوانه ص ٤١ تحقيق د . عزه حسن ، وفي
شرح المفضليات القسم الثالث ص ١٥٤

(اللوامع : ما يلمع من السراب . والاكام : الجبال الصغار .
متغورات : تصف النهار أى قائلة) .

٣ - بذ علبة براها النص حتى بلغت نضارتها وفني السنام
(الذعلبة : السريعة . النص : شدة السير . النضاراة الخالص) .

ولئن مر بنا فيما تقدم من شعر يصف الصحراء اشارات الى
سباع الصحراء ووحشها ، فان الشاعر متمم بن نويرة يصور موقفا
مؤثرا يشير الى ما كان ينطبع فى أخيلتهم من صورة السباع وما استقر
فى نفوسهم من رهبتها والحدر منها ، يتخيّل الشاعر نفسه وهو
يتحضر ، وبالقرب منه تترصدّه ضبع جائعة تنتظر موته لتأكله ،
ويتخيل الشاعر ما ستفعله به تلك الضبع من جذب لحمه وتمزيقه
حتى تأكل وتطعم صغارها منه فيقول (٣٢) :

يا لهـٰف من عـٰرفـٰء ذات فـٰليـٰلة
جـٰاءـٰتـٰ الىـٰ عـٰلـٰىـٰ ثـٰلـٰثـٰ تـٰخـٰمـٰعـٰ

ظـٰلتـٰ تـٰرـٰاصـٰدـٰنـٰ وـٰتـٰنـٰظـٰرـٰ حـٰوـٰلـٰهـٰ
وـٰيـٰرـٰيـٰهـٰ رـٰمـٰقـٰ وـٰأـٰنـٰ مـٰطـٰمـٰعـٰ

وـٰتـٰظـٰلـٰ تـٰنـٰشـٰطـٰنـٰ وـٰتـٰحـٰمـٰ أـٰجـٰرـٰيـٰ
وـٰسـٰطـٰ الـٰعـٰرـٰيـٰنـٰ وـٰلـٰيـٰسـٰ حـٰىـٰ يـٰدـٰفـٰعـٰ

لـٰوـٰ كـٰانـٰ سـٰيـٰفـٰيـٰ بـٰالـٰيـٰمـٰيـٰنـٰ ضـٰرـٰبـٰتـٰهـٰ
عـٰنـٰ وـٰلـٰمـٰ اوـٰكـٰلـٰ وـٰجـٰنـٰبـٰ الـٰضـٰعـٰ

(٣٢) الأبيات في شرح المفهليات ، القسم الأول ص ١٥٩ .
الفلائل : قطع الشعر ، وكل ملتف فليل . واحدتها فليلة .
تمخع : تطلع ، وكذلك الضبع عرجاء .

ولقد كانت الحشرات الضارة - خاصة الحيات - مصدر شر يتوجس العرب منه خيفة ، ويفرعون لرؤيتها فرعا لا يقل عن فزعهم من السباع الضاربة .

يصف الشاعر أبو مهدي الكلابي حية شناء كادت تقتله ، فلم ينس هول ما رأى وبشاعة ما أحس فقال :

قد كاد يقتلني أصم رقش	من جب كلثم والخطوب كثير
حتى أصد الله عنى رأسه	والله بالمرء المضاف بصير
خلقت لها زمه عزيز ورأسه	القرص فلatisch من طحين شعير
وكان شدقته اذا ما اقبل لا	شدا عجوز مضمضة لظهور
ويدير عينا للواقع كأنها	سمراء طاحت من نفيس بريبر (٣٣)

ولم يقتصر حديثهم على السباع والحيات ، بل وصفوا الغول كذلك ، ولست أدرى اذا كانت هذه الغول صورة متخيلة او حقيقة اليهم بها خوفهم أم هي صورة حقيقة لحيوان رأوه وصارعوه .

يقول تابطشا :

الا من مبلغ فتیان قومی	بما لاقیت عند رحابطان
فانی قد لقيت الغول تهوى	بسهب كالصحيفة صمحان
فقتلت لها : كلانا نصو دهر	اخو سفر ، فخلی لی مكانی

(٣٣) الأصمعبات ص ١٢٣ ، تحقيق احمد شاكر وهارون - بيروت - الطبعة الخامسة ،

لها كفى بمصقول يمانى
فأصربها بلا دهش فخرت
فقالت : عد ، فقلت لها رويدا
فلام أنفك متكتأ لديها
إذا عينان فى رأس قبيح
وساقا مخدج وشواة كلب
فشدت شدة نحوى فأهوى
صريرا للدين وللجزان
مكانك اننى ثبت الجنان
لانظر مصباحا ماذا أتاني
كرأس الهر مشقوق اللسان
وثوب من عباء أو شنان (٣٤)

أما فقر البيئة وشحها ، وما كان يتحمله أهلها من مشقة
الجوع والمسغبة ، وما كان يهددهم فيها من الهلاك بسبب ذلك فتصوره
هذه الأبيات لأبي خراش الهذلى حيث يقول (٣٥) :

وانى لاثوى الجوع حتى يملنى
فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (٣٦)

واغتبق الماء القراب فانتهى
اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم (٣٧)

ارد شجاع البطن قد تعلمى منه
وأثر غيرى من عيالك بالطعم
مخافة ان احيانا برغم وذلة
وللموت خير من حياة على رغم

(٣٤) راجع معجم البلدان لياقوت : المجلد ٣ ص ٣١ .

(٣٥) أنظر د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٣٧٦ .

(٣٦) أثوى الجوع : أطيل حبسه .

(٣٧) أغتبق : أشرب عشاء . المزلج : البخيل .

كما يصور شعر الصعاليك أطرافا من شظف العيش الذى كان يدفعهم الى الموت دفعا ، حتى جعلوا السلب صناعتهم ، والجراة على اقتحام الاخطار بضاعتهم ، يفضلون الموت قتلا على الهلاك جوعا ، ويعاون بعضهم بعض فى الغزو والسلب ، ويحتكمون الى قيم خاصة بهم .

ها هو ذا الشنفرى أحد الصعاليك الشعرا يصور لحظة من حياتهم يبدو فيها تأبط شرا أمير الصعاليك مثل الام التى توزع الانصبة من الطعام على بناتها الجياع ، ويالها من ام فقيرة ضائعة تعول أسرة مشردة ، يعيش أفرادها فى خطر دائم .

يقول الشنفرى :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم اذا اطعمتهم او تحت واقتلت (٣٨)
 تخاف علينا العييل ان هى اكثرت

ونحن جياع اي الـ تالت (٣٩)

مصلعكة لا يقصر الستـ دونها

ولا ترجـى للبيـ ان لم تـ بـيت (٤٠)

لـها وـفـضةـ فيـهاـ ثـلـاثـونـ سـيـحـفاـ

اـذاـ آـنـسـتـ اوـلـىـ العـدـىـ اـقـشـعـرـتـ (٤١)

وـتـأـتـىـ العـدـىـ بـارـزاـ نـصـفـ سـاقـهاـ

تجـولـ كـعـيرـ العـانـةـ المـلـفـتـ (٤٢)

(٣٨) المراد بأم العيال : تأبط شرا . او تحت : قترت .

(٣٩) العييل : الفقر . اي الـ تـالتـ : اي سيـاسـةـ حـامـستـ .

(٤٠) مصلعكة : صاحبه صعاليك . لا يقصر الستـ دونها : لا تغطـىـ اـمـرـهـاـ .

(٤١) العـدـىـ : الـأـعـدـاءـ . بـارـزاـ نـصـفـ سـاقـهاـ : كـنـاـيـةـ عنـ الجـدـ فـيـ الـأـمـرـ .

الـعـيرـ : حـمـارـ الـوـحـشـ . العـانـةـ : جـمـاعـةـ الـأـتـنـ الـوـحـشـيةـ .

ولقد كان فقر البيئة أحد العوامل التي جعلت هؤلاء الصعاليك يخرجون على النظام العام للقبيلة ، ويحترفون السلب والغارة وسيلة لتحصيل ما يكفيهم من الطعام والمال ، « وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحة الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشقاء » .

وكما كان الفقر دافعاً كان مبرراً كذلك لخروجهم وغاراتهم ، كما يبدو من شعر عروة بن الورد الذي يرد فيه على زوجه التي لامته على سلوكه ، ومخاطرته بنفسه في الغزو ، ويبير لها أفعاله بأنه إنما يرمي بنفسه في المهالك من أجل أن يوفر لها ما يكفيها من المال ، ولنستطيع الوفاء بحقوق ذوى قرباه المحتاجين وغيرهم من الضعفاء والفقراء . يقول عروة (٤٣) :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر

ونامي فان لم تشتهى النوم فاسهرى (٤٤)

ذرينى ونفسي ام حسان انتى

بها قبل ان لا أملك البيع مشترى (٤٥)

احاديث تبقى والفتى غير خالد

اذا هو أمسى هامة تحت صبر (٤٦)

(٤٣) هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله به ناشب بن هرم ، أحد شعراء الجاهلية وفرسانها وصعاليكها المعوددين كان يدعى (عروة الصعاليك) .

(٤٤) ابنة منذر : امرأته سلمى سباها من كنانة وأعتقها وتزوجها ، وأم حسان كنيتها .

(٤٥) البيع : بمعنى الشراء هنا يقول : ذرينى أشتري المجد قبل أن لا أملك ذلك .

(٤٦) الهمة : روح القتيل التي تطالب بالثأر في زعم العرب .

تجاوب احجار الكناس وتشتكي

الى كل معروف تراه ومنكر (٤٧)

ذرینی اطّوف فی الـبـلـاد لـعـلـنـی
أـخـلـیـکـ او أـغـنـیـکـ عن سـوـءـ مـحـضـ (٤٨)

فـانـ فـازـ سـهـمـ لـلـمـنـيـةـ لـمـ أـكـنـ
جـزـوـعـاـ وـهـلـ عـنـ ذـاـكـ مـنـ مـتـاـخـرـ

وـانـ فـازـ سـهـمـ كـفـکـمـ عـنـ مـقـاعـدـ
لـکـ خـلـفـ أـدـبـارـ الـبـيـوتـ وـمـنـظـرـ

تـقـولـ لـكـ الـوـبـلـاتـ هـلـ أـنـتـ تـارـكـ
ضـبـوـعـاـ بـرـجـلـ تـارـةـ وـبـنـسـرـ (٤٩)

وـمـسـتـثـبـتـ فـیـ مـالـكـ الـعـامـ اـنـنـیـ
أـرـاـكـ عـلـىـ أـقـتـادـ صـرـمـاءـ مـذـکـرـ (٥٠)

فـجـوـعـ بـهـاـ لـلـصـالـحـينـ مـزـلـةـ
مـخـوـفـ رـدـاـهـاـ أـنـ تـصـبـیـکـ فـاحـذـرـ (٥١)

(٤٧) الكناس : موضع .

(٤٨) التخلية : الترك والمراد هنا فراقها بقتله ، فهو اذا قتل تزوجت غيره ، واذا عاد أغناها .

(٤٩) الضبوء : المتصوق بالأرض والاستثار للصيد . الرجل : الرجال . المنسر : الجماعة من الخيل .

(٥٠) الأقتاد : خشبات الرحل . الصرماء : قليلة البن . المذكر : التي تلد الذكور وهو أفعى ما يكون من نتاج العرب وأبغضه اليهم . تقول : هل أنت مستثبت هذا العام في مالك ؟ فاني أخاف عليك الا ترجع ، فانك لا تزال تغير فكيف تراك تسلم ، وجعل من هذه الناقة للداهية .

(٥١) فجوع : تفجع الناس وهو من صفة الصرماء . الصالحون : ذوو المعروف . مزلة : تزل بأهلها .

أبى الخفـض من يغـشاك من ذـى قـرابة
ومن كل سوداء المعاصـم تعتـرى (٥٢)
ومـستهـنـىء زـيد أـبـوه فـلا أـرـى
لـه مـدـفـعا ، فـاقـنـى حـيـاعـك وـاـصـبـرـى (٥٣)

وـفـى أـبـيـات عـرـوة السـابـقـة اـشـارـات عـدـيدـة إـلـى الـمـوـت - اـقـرـأ
الـأـبـيـات السـتـة الـأـولـى - وـفـيـها كـذـلـك اـشـارـات إـلـى الـفـقـر الـذـى يـرـجـو
الـشـاعـر دـفـعـه وـالتـخلـص مـنـه بـالـتـرـحـل وـالـغـزو .

وـقـد أـعـلن الشـاعـر أـنـه يـغـامـر مـنـ أـجـل أـنـ يـدـرك الغـنـى الـذـى يـكـفـيه
وـزـوـجـه ذـلـ السـؤـال وـالـحـاجـة ، وـيـعـيـنـه عـلـى مـسـاعـدة أـقـارـبـه الـفـقـراء
فـانـ لـم يـدـرك تـلـكـ الغـاـية فـالـمـوت أـفـضـلـ مـنـ حـيـاة الذـلـ وـالـهـوان .

هـكـذـا كـانـت الصـحـراء بـطـبـيـعـتـها الرـهـيـبـة وـمـنـاخـها القـاسـى ، وـوـحـوشـها
الـضـارـية ، وـحـشـراتـها الـفـتـاكـة ، وـفـقـرـها الـمـهـلـك عـامـلا قـوـيا ضـاعـفـ من
احـسـاسـ الشـاعـرـ الجـاهـلـى بـالـمـوت .



-
- (٥٢) الخـفـض : الدـعـة وـلـينـ العـيـش . سـوـدـاءـ المـعـاصـم : الـمـرـأـةـ الـتـىـ أـجـهـدـها
الـجـدـبـ وـالـهـلـزـ وـشـدـةـ الـجـوـع .
(٥٣) المستـهـنـىـء : طـالـبـ الـهـنـاءـ وـهـوـ الـعـطـاءـ . زـيدـ أـبـوهـ : رـجـلـ مـنـ قـوـمـهـ
يـجـتـمـعـ مـعـهـ فـيـ زـيدـ جـدـهـ . رـاجـعـ الـأـصـمـعـيـاتـ صـ٤٣ـ ، تـحـقـيقـ
أـحـمـدـ مـحـمـدـ شـاـكـرـ وـعـبـدـ السـلـامـ هـارـونـ - طـ. بـيـرـوـتـ .

الفصل الثاني

الحروب

الحروب هي مواسم حصاد الأرواح ، فيها تطحن روح المنية عظام الرجال ، وتغتال نفوس الابطال ، وهي مواسم شؤم تخلف وراءها ضياع اليتيم وألم فقد وأحقاد الشار .

وقد يكون للحرب غاية وهدف ، فتكتسب بذلك مبررا مقنعا يهون الموت فيها على ذوى الهمم العالية ، كما هو الشأن في حروب الجهاد من أجل اعلاء كلمة الحق والدفاع عن حوزة الدين .

أما اذا كانت الحرب بلا غاية شريفة تنتهي إليها ، أو هدف سام قامت من أجله فبئس هي وبئس مشعلوها .

ولقد كانت أكثر حروب العرب في الجاهلية من هذا الصنف الكريه . فأشهر الحروب وأكبرها قامت لأسباب تافهة لا تستوجب ارقة الدم وازهاق الأرواح ، فحرب البسوس التي تعددت أيامها ، وكثرت ضحاياها ، وامتد أجلها أربعين سنة بين قبائل بكر وقبائل تغلب كان سببها أن كليبا سيد تغلب قتل ناقة للبسوس خالة جساس بن مرة أحد سادة بكر وفرسانها ، فاستثارت خالتة حميته فذهب إلى كلب وقتلها ، ولم ترض قبيلة بكر بالفدية ، فاشتعلت الحرب الضروس التي شهدتها عدة أجيال (١) .

(١) راجع العقد الفريد ج ٥ ص ٢١٣ - دار الكتاب العربي - بيروت

اما حرب داحس والغبراء التى تطاير شررها وحمى اوارها
بين عبس وذبيان فقد كانت بسبب رهان على سباق بين فرسين هما
داحس والغبراء (٢) .

والامر فى نظر العقلاء لا يستحق نشوب حرب ، لكنها العقلية
الجاهلية البدوية التى لم يهذبها دين فاستجابات لاغواة الشيطان واتبعـت
نداء الحمق والمهوى فأشعلت الحرب الضروس لأمر تافه .

وقد كان البعض الحروب والغارات مبرر اقتصادى كالمنازعة على
بئر ماء أو المنافسة على مكان معشب ، وقرب من هذا غارات السلب
وأحداث قطع الطريق التى كانت تراق فيها الدماء فوق رمال شبه
جزيرة العرب .

وليس هناك أمة وفى التاريخ أنها اقتلت مثل العرب الجاهليين
فلقد تعددت حروبهم وعرفت بأيام العرب ، وسطرت فيها كتب ،
وأفردت لها الأبواب فى كتب التاريخ وكتب الأدب .

وتبلغ أيام العرب وحربوهم من الكثرة مبلغاً كبيراً حتى انه
ليقال :

« ان أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ هـ صنف في ألف يوم ومائتين منها
كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده » (٣) .

ولقد وسمت هذه الأيام الكثيرة في ذاكرة التاريخ بعلامات مختلفة ،
فقد يسمى اليوم باسم المكان الذي حدثت فيه الحرب كبئر ماء أو جبل
أو غير ذلك .

(٢) راجع العقد الفريد ج ٥ ص ١٥٠ .

(٣) د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٦٤ .

وقد تسمى التحرب باسم المسبب الذى أحدثها ، أو باسم حادثة مشهورة وقعت فيها .. وهكذا

وتشغل الحروب حيزاً كبيراً فى ديوان الشعر الجاهلى ، بل ان هناك أغراضاً عديدة فى الشعر نشأت من وحي الحرب ، فشعر الحرب والخيال ، وشعر الفخر والحماسة ، وكثير من شعر الرثاء ، يدور حول الحرب واصفاً أدواتها أو حاثاً ومحرضاً عليها ، أو راصداً لنتائجها من ظفر وخيبة ، أو مسجلاً لأحداثها من كروافر وثبات وادبار وقتل وأسر وغير ذلك ، أو باكياً أبطالها الذين قتلوا .

والذى يقرأ الشعر الجاهلى فى الحماسة والفخر يظن أن القوم استهانوا بالموت الى حد كبير ، وأن احساسهم به تبلد ، وأن مزاجهم ألف الدم والقتل ، فاستساغ كل ذلك ولم يستقبحه .

بيد أن شعرهم فى الرثاء يعرى ما خفى من نفوسهم فى هذا الجانب ، ويظهر جزءهم من الحرب ، ويجلى احساسهم بالموت وكراهية ما هم فيه من اقتتال ، كما تظهر تلك الأمور أيضاً فى أشعار بعض حكمائهم الذين عرفوا برجاحة العقل وسمو النفس ، على أن الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن الحرب فى واقع الجاهليين أوشكت أن تكون عادة ، فهم بين حرب يخوضونها أو حرب يستعدون لها ، بين اغارة أو دفع لغارة ، بين كروافر دائمين .

يمصور ذلك تلك الأبيات لدرید بن الصمة (٤) :

واما للحم السيف غير نكيرة وللحمة حيناً وليس بدئ نكتر
يغار علينا واترين فيشتفي بنا ان أصبنا او نغير على وتر

(٥) انظر : العصر الجاهلى ، د. شوقى ضيف ص ٦٤ .
(م ٣ - الشعر المباھلى)

قسمنا بذلك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى الا ونحن على شطر
 ولست انكر أن نزعة الفخر هي الغالبة على تلك الأبيات ،
 لكنني أحس وراء هذه النزعة شيئاً من الضيق بهذه الحياة ، وبعضاً
 من الكراهة لها ، فالشاعر وقبيلته طعام للسيوف يغار عليهم ويقتل
 منهم ، وقد انقسم الدهر في حياتهم شطرين في كلٍّ مما قتل ، يغار
 عليهم أو يغيرون على غيرهم .

وما اتعس حياة لا تنفك عن الصراع الدموي ، ولا تزالها الحروب
 ويعيش أصحابها يتجرعون كؤوس الموت باستمرار ، ويحترون مرارة
 الحقد والرغبة في الثأر والانتقام .

ولم تقصر الحروب على قبائل دون غيرها ، فكلهم ذاق مرارتها ،
 وكلهم أغار وأغير عليه ، بل ان الحرب كانت تشتعل - أحياناً -
 بين الجيران وذوى القربي كما يبدو من قول القطامي (٥) :
 اغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حان حانا
 واحياناً على بكر اخينا اذا مالم نجد الا اخانا
 وهم في وصفهم للحرب ، وتصويرهم لما نزل بالأعداء من قتل
 وأسر وطرد ، يقعون على صور غاية في القسوة حتى ليظن المرء
 أن قلوبهم أشربت القتل ، فهم يجدون متعتهم في وصف المصارع
 والدماء واظهار التشفي بما الحقوه بالأعداء ، وينعون الخيول والفرسان
 بما يدل على الغلطة ، ويفصلون في ذكر آثار الهزيمة ومرارتها ،
 وهذه أبيات للشاعر بشر بن أبي خازم تتضمن تلك المعانى ،
 يقول بشر (٦) :

(٦) راجع الأبيات وشرحها في شرح المفضليات للتبريزى ، القسم الثالث
 ص ١١٩٧ .

سائل تميم في الحروب وعمارات

وهل المجرب مثل من لم يعزم

غضبت تميم أن تقتل عمار

يوم النصار فاعقبوا بالصليم

أى كانت الصليم عاقبة أمرهم . والصليم : الدهمية . وهذا تهم ،
والصليم فيعلم من الصلم ، وهو القطع ، أى المصطلمة لجماعتهم .

كنا اذا نعرو لحرب نرة

نشفي صداعهم برأس صلدم

نعرو : هاجوا واجتمعوا . والنرة : أبهة تأخذ في الرعوس
والأنوف ، ومعنى نشفي صداعهم : كنایة عن مداواة دائهم وإزالة الكبر
من رعوسمهم . والرأس : الرئيس . وصلدم : شديد .

نعلو القوانس بالسيوف فنعتزى

والخييل مشعلة النحور من الدم

أى ملطخة الصدور بالدماء السائلة عليها . وقيل : إنما أراد
أنها أشعلت فيها نار لتأثير الطعن فيها ودفعها بالدماء السائلة منها .

يخرجن من خلل الغبار عوابسا

خبب السباع بكل أكلف ضيغ

أى بكل رجل كأنه أسد أكلف ضيغ . والضغ : العض .
والuboas : الكريهات المنظر .

من كل مسترخى النجاد منازل

يسمو الى الأقران غير مقلم

منازل : ينازل أقرانه ، ولا يتهم نفسيه بعلاقاة من لا يؤبه له .
وجعل غير مقيم لكونه قاتم البلاج :

ففضض جمعهم وأفلت حيراجب

تحت العجاجة في الغبار الأقلم

وراوا عقباهم المدلة أصبحت
نبذت بافحى ذى مخالب جهضم

كانت راية بنى تميم على صورة العقاب وراية بنى أسد قبيلة
بشر على صورة الأسد ، والمدلة : التي تدل على الأقران . والمعنى :
قويلت علامتهم العقابية بعلامتنا الأسدية ، والفضحة : شهبة
تعلوها حمرة .

اقمن حمرا قبل ذلك والقنا

شرع اليه وقد أكب على الفم

يعنى حجر بن الحارث - الملك ابن عمرو - قتلته بنو أسد ،
وهو أبو أمراء القيس قوله : والقنا شرع : أى قد تهيات للطعن ، وقد
أكب لوجهه : أى سقط .

ينوى محاولة القيام وقد مضت

في به مخارص كل ليدن لهدم

المخارص : الأسنة . والنهدم : الحديد . أى ينوى أن يقوم فلا يقدر
وقد مضت فيه الأسنة .

وبنو نمير قد لقينا منهم

خيلا تضب لشباتها للمغنم

تضب : تسيل . و (نمير) ابن عامر بن صعصعة : اللثاث : جمع

لثة وهى اللحمة المركبة فيها الاسنان . يقال : فلان تضب لثته على
وتبض ، اذا كان خريصا عليه .

فدهمنهم دهمنا بكل طمرة
ومقطع حلق الرحالة مزجتم
لحقنهم بكل فرس وثابة لنشاطها ، سريعة في متراها ، يقطع
الحزام لعظم جوفها .

ولقد خبطن بنى كلاب خبطنة
الضاقنهم بدعائهم التخيّم
يريد دسن بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . والخبط :
الضرب ولذلك قيل : هو يخبط خبط العشواء . ومعنى الصقنهم الجانهم
إلى الالتصاق بدعائم البيوت المضروبة . يريد : رددهم أسوأ الرد في
متخيمهم .

وصلقن كعبا قبل ذلك صلقة
بقنا تعناورة الاكف مقسوم
يريد كعب بن ربيعة بن عامر . والصلق : رفع الصوت ، ومثله
السلق ، فيقول : أوقعنا بهم وقعة لها في الناس صوت ذكر .

وقيل : الصلق : الضرب على الشيء اليابس ، قوله : بقنا تعناورة :
يريد فعلنا تلك الصلقة من قبل بقنا تداوله الأيدي لاطرادها واستواها .

حتى سقينا الناس كأسا مرة
مكرهه حسواتها كالعلقم

العلقم : شجر مر ١٠٠ هـ .

و واضح أن الشاعر يعدد القبائل التي اصطلت بالخرقوب وذاقت

معراره المهزيمة على أيدي فرسان بنى أسد ، وهو يصف المصارع التي وردها رؤساء القبائل المهزومة ، ويشير الى صفات الخيال ونوعوت الفرسان ، ويشير الى اثر المهزيمة في القوم ويشبهها بالكأس المرة المشيبة للعلقم .

وعلى هذا النحو يتحدث الأعشى عما أنزلته قبيلته بالقبائل الأخرى من نكال وقتل ، وأن ذلك الأمر مشهور عنهم بين الناس ، فيقول :

سأئل بنى أسد عننا فقد علموا
أن سوف يأتيك من أبناءانا شكل
واسئل قشیر او عبد الله كلهم
واسئل ربيعة عننا كيف نفتعل
انا نقائلهم حتى نقتلهم عند اللقاء لهم جاروا وهم جهلا
للن منيت بنا عن غب معركة لم تلفنا من دماء القوم نتفعل
قد تخضب العيير من مكنون فائله
وقد يشيط على أرماحنا البطل
نحن الفوارس يوم العين صاحية
جنبي فطيمية لا ميل ولا عزل
قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنا
او تنزلون فانا عشر نزل (٧)

(٧) د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى من ٣٠٢ . شكل : أزواج مختلفة ، يزيد خبرا بعد خبر . نفتعل : نفعل العظام . غب : عقب . يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء . العيير : حمار الوحش استعاره للفرس . الفائل : القناة الدموية كالشريان ، يشيط : يهلك . تغزلون : تغمرون بالسيوف .

والأبيات في مجلها تدور حول المعانى التى دارت حولها أبيات بشر بن أبي خازم لكن الجدير باللاحظة أن قبيلة بنى أسد التي فاخر بها بشر وصورها منتصرة تذيق القبائل مرارة الهزيمة ، هذه القبيلة (بنو أسد) ورد ذكرها في مصدر أبيات الأعشى على أنها تعرف شجاعة القبيلة التي ينتمي إليها الأعشى ، وما ذلك إلا عن تجربة ، فهي في أبيات الأعشى ومن هزموا وذاقوا النكال والقتل ، وذلك يدل على أن كل القبائل ذاقوا مرارة الحرب مهزومين كما فاخروا بها منتصرين .

كما يصور مهلل بن ربعة فعله ببجير بن الحرف بن عباد ابن مرة ، وهمام بن مزنة ، وكيف تركهما وغيرهما من القتلى غارقين في دمائهم تطيف على أشلائهم النسور ، ويصف ما نزل بالوخوم من بنى عامر بن ذهل على يديه من سوء يوم عنيزة ، فيقول :

فاني تركت بسوار دات	جيرا في دم مثل العبير
وهمام بن مرة قد تركنا	عليه القشعمان من النسور
يدافعن الائمة بالنحور	وصبحنا الوخوم بيوم سوء
كانا غدوة وبيني أبيينا	بجوف عنيزة رحيم مدير
فلولا الريح اسمع أهل حجر	

صليل البيض تقع بالذكر(٨)

(٨) المهلل : أمرؤ القيس بن ربعة بن الحارث سيد تغلب وفارسها وشاعرها القديم .

واردات : موضع كان فيه يوم بين بكر وتغلب . القشع : المتن من الرجال والنسور والرخام وقد أراد بالمعنى الجمع . الوخوم : من بنى عامر بن ذهل . عنيزة : موضع . وحجر : مدينة باليماماة . وأراد بالذكر : أجود السيوف وأييسها وأشدتها . وقد أفرط في المبالغة ، إذ جعل صليل السيوف يسمع باليماماة لولا الريح وقد كانت حربهم بالجزيرة وبين الموضعين عشرة أيام .

وتجد مثل هذه الصور في شعر أمراء القيس وعترة بن شداد
و عمرو بن كلثوم وغيرهم .

وقد يدل ذلك على استهانة القوم بالموت وجرأتهم عليه ، لكنه
يُدل في الوقت نفسه على أن الموت كان يملأ حياتهم ، وأن صورته
لم تفارق أخيلتهم ، وهم يمدون الحرب في حالة النصر والظفر ،
وعند الهزيمة يجتررون الأحزان .

وفي فطرة الناس التي فطرهم الله عليها كراهية الحرب وحب
السلام والتعلق بالحياة ، ولا أدل على ذلك من قول الله عز وجل - في
عرض حث المؤمنين على الجهد في سبيل الله :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً
وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم
وأنتم لا تعلمون » .

ويمثل زهير بن أبي سلمى صوت النذير العاقل الذي يعي قومه
لنبذ الحرب والتعايش في سلام ، وتطالعنا في شعره صور كريهة
للحرب ، تغير الناس منها ، وتتصدرهم بشؤمها ووبالها ، وتحذرهم
عواقبها الوخيمة ، فيصور الحرب أساها ضاريا ، وناراً مشتعلة ،
ورحي تطحن ، ويحسورها ولوداً لأجيال الحقد والشوم والثار
والانتقام ، وهي لذلك لا يجني الناس منها إلا الخسران والبوار .
يقول زهير (١) :

(١) راجع شرح القصائد المشهورات لأبن النحاس ص ١١٢ .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

منى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا اضررتها فتضركم

فتعركم عرك الرحى بثفالها
وتلهم كشافا ثم تحمل فتتهم

فتنتيج لكم غلمان اشام كلهم
كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم

فتغسل لكم ما لا تغسل لاهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ولقد أشار الشاعر شعبة بن قمير الى بعض العوامل التي سبق
ال الحديث عنها ، والتي كانت تقوى احساس الشاعر الجاهلي بالموت
فى قوله :

هلك الذين تحملوا من عندهنا
بالقتل والحيات والأوصاب
وبقيت بعدهم فأدركنى البلى
حتى للأياما أسيغ شرابى (١٠)



الفصل الثالث

الرحلة

من المعروف أن حياة العرب كانت تعتمد على الترحل والانتقال من مكان إلى آخر تبعاً لمساقط الغيث ومنابت الكلاً .

والرحلة في حقيقتها وداع وترك ، ينتقل الحى فيودع جيرانه ويترك مكانه ، ويحط المزار بين المنزل القديم والمنزل الجديد وبين الرحلة والموت شبه من تلك الأوجه .

وبينهما كذلك شبه من جهة العاقبة ، فالموت يعقبه التغير والفناء ، وكذلك الرحلة . فالقوم بعد أن يتركوا منازلهم تغيرها الرياح وتعبث بها ، وتسكنها من بعد أهلها أسراب الوحش وحيوان الصحراء ، ولهذا نرى كل الشعراء الجاهليين يقفون على آثار الديار ، يبكون ويستبكون ، ويسترجعون الماضي والذكري ، والذى يستعرض بكاء الأطلال يلاحظ أن الشعراء في هذا الغرض يستخدمون الالفاظ الدالة على الفناء والبلى والتغير والزوال ، ويلاحظ أيضاً أن الشعراء في وصفهم للديار في ماضيها والتعجب من مصيرها الذى أتى إليه يلمون بمعانٍ شبيهة بمعانى الرثاء ، كما يشيرون إلى فعل الزمان ويد الدهر ، وإلى سوابقه في التغير والفناء .

كل ذلك يدل على أن الترحل يذكر بالموت ويقوى الاحساس به وما يزال الناس إلى يومنا هذا يبكون عندما يودع بعضهم بعضاً عند رحلة أو سفر لما ارتبط في الذهان وفي الوجدان من علائق بين الموت والارتحال ، ففي كلا الأمرين فراق واغتراب .

يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن:

وفي نسيج الوجود خيطان ، خيط الحياة وخيط الموت ، والحياة
والموت سداة الوجود ولحمته ، وفي الطلل حاول الشعراء الجاهليون
أن يظهروا الخطيئين معاً ، فظهر القلق من أمر الموت ، أو من الفناء ،
فقد رحل الانسان الذى نصب الأثافي وطها الطعام ، ورحل ساكنو
البيت . . . ومن القلق يتولد البكاء ، ولذا بدا البكاء على الطلل بكاء
انسان قلق يحس بعمق أن الفنان يتربص بالانسان » (١) .

وقد كان العرب - لذلك - يكرهون الترحل لما فيه من فراق
للحبة ويتشاءمون به على نحو ما يقول النابغة :

نعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغداف الأسود
لا مرجباً بعده ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ، ولم تودع مهداً
والصبح والاسماء منها موعدى (٢)

أما ألفاظ الفناء ومعانى الحزن فى وصف ديار الاحبة الذين ارتحلوا فهى فى الشعر الجاهلى أكثره ، وحسبنا أن نشير الى بعض الأمثلة من المعلقات .

فى معلقة امرئ القيس أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى
بدأ الشاعر ببكاء الديار ووصف ما لحقها من تغير بعد رحيل أهلها
عنها ، ووصف حزنه وأساه على فراق الأحبة ، فقال :

(١) انظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ،
د. نصرت عبد الرحمن ص ١٦٢ ، مكتبة الأقصى - عمان ١٩٧٦ .

(٢) ديوان النابغة : ص ١٠٥ .

فَقَاتِبُكَ مِنْ ذَكْرِي حَبِيبٍ وَمِنْزِلٍ
بِسُقْطِ الْلَّوْيِ بَيْنِ الدُّخُولِ فَحُوْمَلٍ

فَتَوْضِحُ فَالْمُقْرَأَةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمَهَا
لَا نَسْجَتُهَا مِنْ جَنْوَبٍ وَشَمَالٍ

تَرَى بَعْرُ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا
وَقِيعَانُهَا كَائِنَةُ حَبْ فَافَلٍ

كَائِنَ غَدَاءُ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمِلُوا
لَدِي سَمَرَاتِ الْحَى نَاقْفَ حَنْظَلٍ

وَقَوْفَا بِهَا صَبْحَى عَلَى مَطِيهِمْ
يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجْمَلُ(٣)

وَكَمَا وَقَفَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَبَكَى وَقَفَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ عَلَى أَطْلَالِ خَوْلَةٍ
وَاسْتَبَدَ بِهِ الْأَسَى فَنَصَحَهُ رَفَاقُهُ بِالتَّجَلْدِ وَالصَّبْرِ ، يَقُولُ طَرْفَةُ :

لَخَوْلَةُ أَطْلَالُ بِرْرَقَةُ ثَمَدٌ
تَلْوُحُ كَبَاقِيِ الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وَقَوْفَا بِهَا صَبْحَى عَلَى مَطِيهِمْ
يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَادُ(٤)

(٣) شرح المعلقات السبع : ص ٤ . سقط اللوى ة منقطع الرمل المعوج ، والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقرأة كلها مواضع . لم يعف رسماها : لم ينمغ أثراها لهبوب الرياح عليها من جهة الجنوب والشمال فإذا غطتها أحدهما بالتراب كشفت الأخرى التراب عنها . والأرام : الظباء . وعرصات الدار : ساحاتها . وسمرات : جمرة بضم الميم من شجر الطلح . ناقف الحنظل : الذي يشقه . يزيد : وقف بعد رحيلهم في حيرة وقفية جانبي الحنظلة يشقها بظرفه .

(٤) شرح المعلقات السبع : ص ٣٥ .

أما زهير بن أبي سلمى فيصف الديار بعد عشرين سنة من رحيل
أهلها ، ومن الطبيعي بعد هذه المدة الطويلة أن يصعب عليه التعرف
على الديار ، وأن يعرفها بعد لاي ، فقد تغيرت معالها ، ولم يبق منها
الا آثار باهتة كاللوشم فى المعصم ، واتخذ البقر الوحشى منها
مسكنا ، ولما تعرف عليها حياها وفأ بحقها وحق من كان يسكنها .
يقول زهير :

آمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتشتم
ودار لها بالرقمتين كانها مراجيع وشم فى نواشر معصم
بها العين والأرام بمشين خلفة
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلايا عرفت الدار بعد توهم

أشافي سفعا فى معرض مرجل ونؤيا كجذم الحوص لم يتسلم
فلما عرفت الدار قلت لربعها
الا انعم صباحا أيها الربع واسلم (٥)

ووقف النابغة فى ديار مية التى هجرها أهلها ، فبدت خالية
الا من آثار قليلة ، وتراكم فى أركانها التراب ، ودب فى أرجائها

(٥) انظر شرح المعلقات السابع ص ٥٨ . الدمنة : ما اسود من آثار الدار
بالبعر والرماد وغيرهما . حومانة الدراج والمتشتم : موضعان ،
والرقمتان موضعان . قوله دار لها . يزيد : داران لها بهما فاكتفى
بالواحد عن الثنوية . العين : البقر الواسع العيون . والأرام :
جمع رئم وهو الطبى الحالى البياض . والأطلاء : حجارة توضع عليها
القدر . سفعا : سودا . المعرض : المنزل . الرجل : القدر . النؤى :
نهير حول البيت ليجري فيه الماء .

الخراب وتنذير الشاعر ما حدث للقمان بن عياد الذى عمر طويلاً ،
ثم مات ، وأيقن أن رجوع الماضي مستحيل : قال النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند
وقفت بها أصيلانا أسائلها
عيت جواباً ، وما بالربع من أحد
اللؤى كالحوض بالظلومة الجلد
واللؤى كالحوض بالظلومة الجلد
ردت عليه أقصاصيه ولبده
ضرب الوليدة بالمسحة فى التأدب
ورفعته الى السجفين ، فالنضد
خلت سبيل اتنى كان يحبسه
امست خلاء وأمى أهلها احتلوا

أختى عليها الذى أختى على لبد (٦)

هكذا كانت الرحلة وما ينتج عنها من فراق الأحبة وبعد المنازل
وخراب الديار عاملاً من العوامل التي قوت احساس الشاعر الجاهلى
بالموت .

ولئن كانت تلك العوامل ناشئة من الواقع الجاهلى ، فإن ثمت
عاملاً آخر ضاعف من احساس الشاعر الجاهلى بالموت ، وهذا

(٦) ديوان النابغة ص ٩٠ . العلياء : المكان المرتفع . السند : السفح موقع
بين القمة وأنوادي . أقوت : هجرها أهلها . أصيلانا : عند الأصيل .
عيت جواباً : عجزت عن الجواب . الأوارى : مفردتها الارى ، وهو
ما تشد به الدابة . اللائى : الشدة . اللؤى ما يحفر حول البيت
أو الخيمة ليجتمع فيه ماء المطر . والظلومة الجلد : الأرض الصلبة
الشاقة . لبده : تراكم التراب عليه . الاتنى : المياه الجارفة .
السجفان : الستاران . والنضد : المتاع .
أختى عليها : غير أحوالها وبذاتها . ابد : يقصد به نسراً يقال انه
كان للقمان بن عياد عاش مدیداً .

العامل لم يكن منشأه الواقع والبيئة ، بل كان راجعاً إلى نفس الإنسان الجاهلي ، الذي لم تعرف اليقين بالأخرة ، ولم تؤمن بالبعث والحياة بعد الموت ، واعتقدت أن الموت نهاية كل شيء ، وأن الحياة الدنيا هي الفصل الأول والأخير في قصة الوجود ، وقد كانت تلك العقيدة شائعة بينهم لافتقارهم الدين الصحيح على نحو ما سأبینه في الفصل التالي .



الفصل الرابع

افتقادهم الدين الصحيح

لا جرم أن اليمان بالله واليوم الآخر ، واستقبال رسالات السماء بالتصديق الجازم واليقين الثابت يحل كثيرا من المشكلات التي يعجز عقل الإنسان عن الوصول فيها إلى الحق الصريح .

ان العقل البشري قد يعجز عن تصور امكان البعث بعد الموت والحياة الآخرة اذا عمل هذا العقل بمعزل عن هدى السماء الذي تنزل على الرسل ، ولهذا ضل كثير من الفلاسفة وتأهوا ، وتشعبت بهم السبل وهم يبحثون بعقولهم في القضايا التي أسموها (ما وراء الطبيعة) والتي تعرف في الاسلام بالغيبيات .

ان التدين الصحيح المتضمن اليمان القوى بالله وبال يوم الآخر ، يضيئ قلب الانسان وعقله ، ويُشعّب تطلعات روحه ، ويغرس في نفسه غراس الامل في رحمة الله ، ويجعل نفسه مطمئنة راضية ، تعمل الخير وتحبه رجاء مرضاة الله وثوابه ، وتحذر الشر وتكرهه خوفا من الله وعقابه .

عندئذ يصبح للحياة مغزى وهدف ، ويكتسب الموت مبررا قويا مقنعا ومرضيا للعقل الذي لا تنتهي تسؤالاته ، فيكون نهاية لمرحلة وبداية لآخرى .

الموت عند الم الدين بالدين الصحيح أمر لابد منه واقعا وعقولا ، والآخرة عنده أمر لابد منه واقعا وعقولا كذلك . اذ كيف تكون الحياة الدنيا هي كل الغاية من الخلق ؟ وكيف يتساوى الخير والشر ؟

(م ٤ – الشعر الجاهلي)

وهل يرضى العقل ، أو يكون من العدل أن يصبح الدفن في التراب هو المصير الذي ليس بعده رجعة ولا حساب ولا جزاء على اختلاف ما يقع في دنيا الناس من أعمال ، وعلى تفاوت ما يجنيه أصحابها من نتائج غالباً ما تكون غير منضبطة بموازين الحق والعدل ؟

والذين يعرضون عن هدى السماء ، ولا يدينون دين الحق يتخطبون في الظلمات ، وتسير الأمور في نظرهم بغير منطق ودون غاية ، وتبدو الحياة في تصورهم عبثاً لا فائدة منه ولا هدف له ، ويظنو أن الموت حدث لا مبرر له ولا حكمة من ورائه ، وأن البعث أمر مستحيل لا يمكن حدوثه . . . وهكذا كان أكثر العرب في الجاهلية ، وهكذا يكون كل من يفقد الدين الصحيح في كل مكان وزمان .

لقد كان العرب - في جملتهم - وثنين ، يعبدون الأصنام من دون الله ، أو يزعمون أنها شريك له .

كما كانوا - في جملتهم - بين شاك في البعث ومنكر له ، وأقول : « في جملتهم » ليصح لنا أن نستثنى من هذا الحكم قليلاً منهم تمسكوا ببقايا من دين إبراهيم - عليه السلام - أو عرفوا شيئاً مما صح من معتقدات أهل الكتاب اليهود والنصارى فأمتنوا بوحدانية الله عز وجل وتعبدوه بما استطاعوا من الأعمال رجاء ثوابه وخوفاً من عقابه في الدار الآخرة .

أما أكثر العرب فكانوا مشركين بالله ، لا يصدقون بيوم الدين ، وبسبب ذلك غامت روؤيتهم ، وتخبطوا في شعب الحياة ، فلم يعرفوا معرفوا ولم ينكروا منكرا في كثير من الأمور ، وأملت عليهم بيئتهم قوانينها التي حكمت أنماط سلوكهم ، فاتخذوا السلب والنهب ، والغارة وال الحرب سبل لكسب الرزق ، ونظروا إلى الموت على أنه

النهاية التي ليس بعدها حياة ، ولم يعرفوا بالحكمة منه واعتقدوا أنه حدث لا تقديره وراءه ولا تدبير ، على الرغم من تيقنهم أنه مصير لا فكاك منه لأحد .

وليس دقيقاً ما ذهب إليه الدكتور عمر فروخ ، إذ يقول :

« البدوى موحد ، ولكنه قليل الاحتفال بالعبادات وبالدين كله اذا كان آمناً على نفسه » (١) .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه في قوله :

« أما الجامع الروحى الذى كان فى جمیع شبه الجزيرة العربية يجمع بين أفراد الأسرة ويجمع أيضاً بين أفراد القبيلة فكان البر . وقد قام البر للجاهلى فى البدو والحضر مقام الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية » (٢) .

واستشهد الدكتور فروخ بورود كلمة (البر) في الشعر الجاهلي لاثبات ما ذهب إليه ، وأورد قول النابغة في حديث الرجل والحبة :

فلمـا وقـاها اللـه ضـرـبة فـأـسـهـ

ولـبـر عـيـن لـا تـعـمـض نـاظـرـه (٣)

وأورد قول عمرو بن كلثوم :

نجـذ رـعـوسـهـم مـن غـيـرـ بـرـ (٤)

(١) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٦١

(٢) المرجع السابق : ص ٦٤

(٣) أنظر ديوان النابغة ص ١٢١ ، دار الكتب العلمية - بيروت ،

(٤) تمام البيت : فما يدرون مـاذا يتـقـونـا

وهو من ملقته : راجع شرح المعلقات المحبع للزووزنى من ١٠٢

كما استند الى موقف طرفة من اقاربه الذين ظلموه وأكلوا حقه في الميراث ، فلم يسع اليهم رعاية لحقوق الغربي ، وفذلك من البر .

وما استشهد به الدكتور عمر فروخ لا ينهض دليلاً لاثبات البر للجاهلين وادعاء أن هذا البر كان يقوم عندهم مقام الدين والأخلاق ، لكن المعمول على ما يلقب على الانساني من سلوك ، وما يشيع في البيئة من قيم وأخلاق ، وورود كلمة البر في بعض الأشعار ، وموقف طرفة من اقاربه لا يكفيان لاثبات البر والأخلاق الكريمة لمجتمع باسره ، مع ملاحظة أننا لا ننفي كل مكرمة عن الجاهلين ، فقد كان عندهم بعض المكارم التي أقرهم عليها الاسلام ، فكل انسان - مهما كان الأمر - لا يخلو من خير ، وكل بيئة لا يمكن أن تكون شرًا محضا ، لكن العبرة بالكثير الغالب - كما أسلفت - .

وبين نجد مئات الأحداث والشوادر التي تدل على أن الشر وليس الخير هو الذي كان يغلب على سلوك الجاهلين أفراداً وجماعات ، ومرجع ذلك إلى الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها في بيئات الصحراء ، والتي عدم التزامهم بدين صحيح يكبح جماح الغرائز والشهوات ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الموبقات ، فضلاً عن انكارهم للبعث أو شكهم فيه ، فتصوروا أن الدنيا هي كل شيء ، من ظفر بها فقد ربح ومن خسرها فقد خسر ، ولا زوجة بعد الموت ولا ثواب ولا عقاب .

وقد نتج عن ذلك كله أنهم أوغلوا في الشير ، وانتشرت بينهم الرذائل والموبقات ، كالخمر والميسر ووأد البنات والاقتتال والتمثيل بالقتل والغير ذلك ، حتى أولئك الذين عرفوا بمكارم الأخلاق منهم واشتهروا بفعل بعض الصالحات لم يكونوا يفعلون الخير الا رغبة في

مدح الشعراء وثنائهم ليخلد ذكرهم - بعد الموت - بتلك الأفعال
 على نحو ما نجد في قول عروة بن الورد (٥) :

أحاديث تبقى والفتى غير خالد
 إذا هو أمسى هامة تحت صبر

وفي قول سنان بن أبي حارثة (٦) :

قد يعلم القوم اذا طالت غزاتهم
 فتق العشيرة والأكتفاء شهادى

قد يعلم القوم اذا طالت غزاتهم
 وأرملوا السزاد انى ملحد زاهى

ولا اجيء بسبوعات اعيرها
 حتى يجيء من القبر ابن مياد

اثنوا على فكائن قد فتحت لكم

من باب مكرمة تعتذر او واد

ولقد سمى ذلك العصر بالعصر الجاهلي ، لكثرة ما فشا فيه
 من الشر والفساد والحمق والطيش .

أما أقوالهم الدالة على عقيدتهم في أن الحياة عبث لا جدوى
 منه ، وأنه لا بعث ولا حساب بعد الموت فمنها قول طرفة بن العبد
 في معلقته (٧) :

(٥) الأصميات ص ٤٤ .

(٦) الأصميات ص ٢٠٩ . وسنان بن حارثة شاعر جاهلي وميد شريف
 فارس ، وهو أبو هرم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى المشهور .

(٧) راجع شرح القصائد السبع الطوالي لأبي محمد بن القاسم الأنباري
 ص ١٩٨ .

فذرني أروي هامتي في حياتها
ستعلم ان متنا غدا اينما الصدى

کریم پروری نفسہ فی حیاتہ

مخافة شرب في الممات مصدر

الى آخر الأبيات .

وَمَا يَدْلِ عَلَى أَنْهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَوْتَ يَصِيبُ النَّاسَ مِنْ غَيْرِ تَدْبِيرٍ وَلَا سَهَّلَةٍ تَصْوِيرُ زَهْبَرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى - وَهُوَ مِنْ حُكْمَائِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ - الْمَوْتُ بِحَدَّ النَّاقَةِ الْعَشَوَاءِ لِمَا تُخْبِطُ دُونَ بَصَرٍ أَوْ ادْرَاكٍ ، وَتَسِيرُ مِنْ غَيْرِ نَظَامٍ فَلَا تَهْتَدِي إِلَى غَبَابِيَّةٍ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (٨) :

رأيت المسايا خبط عشواء من تصي

تمته و من تخطيء يعمر فيهم

ولقد ذهب أكثر النقاد والمؤرخين والدارسين مذهبًا يخالف مذهب

• المَكْتُور عمر فروخ في قضية دين الجاهليين .

• فالاستاذ احمد حسن الزيات يقول عن دينهم :

« .. كان بقية أثرية من دين ابراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة ، مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجحالة وعدم القرار ، فحالت فى نفوسهم الى عبادة الاصنام وتعظيم الاوثان ونصبها على الكعبة تقربا الى الله على زعمهم ، وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب » (٩) .

ويقول الأستاذ السيد أحمد الهاشمي :

«كان للعرب في الجاهلية دين ، ولكن دين ضعيف لا يخلصون له

^(٤) شرح المعلقات السابع ص ٦٩ للزووزني .

^{١٠} (٩) تاريخ الأدب العربي ص.

ولا يصل الى اعمق نفوسهم ، وحسبنا دليلاً على ذلك أنتا تنظر فيما بين أيديهم من شعورهم فنرى فيه الصيد كثيراً والخمر والنساء والمسر كثيرة ، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيرة ، ولكن قل أن نرى فيه شرحاً لعاطفة دينية ، وقل أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده ، وقل أن نرى فيه وصفاً لما كانوا يعبدون « (١٠) » .

ويقول الدكتور شوقي ضيف :

« كانت كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى الهيبة كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة ... وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان .. فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء في القرآن الكريم وكانوا يتبعون لآصنام وأوثان كثيرة أتخذوها رمزاً لآلهتهم » (١١) واستشهد الدكتور شوقي ضيف بما ورد في القرآن الكريم وأشارات إلى آصنام الجاهلية وأسماء تلك الآصنام كاللات والعزى ومناة ويعوق ونسر .

والدليل الدامغ أن الجاهليين كانوا أصحاب عقيدة فاسدة في أمر الآخرة ، لا يؤمنون بالبعث والحساب ما ورد في القرآن الكريم من آيات كثيرة ترد على مزاعمهم في إنكار البعث واستبعادهم وقوعه ، ولقد سلك القرآن الكريم طرقاً عدة في رد باطلهم وتصحيح معتقداتهم ، واظهار الأدلة العقلية التي تبرهن على أن البعث والحساب والجزاء حق لا شك فيه .

وقد تنوّعت هذه الطرق بين تعجب من مذهبهم ، وتهذيد ووعيد لهم ، وتأكيد على حصول البعث والحساب ، واقناع بالأدلة المثبتة

(١٠) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ج ٢ ص ١١ - المكتبة التجارية ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

(١١) انظر تاريخ الأدب العربي العصري الجاهلي - ص ٨٩

في الكون ، الناطقة بقدرة الله عز وجل قدرة مطلقة لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

فمن التعجب من أمرهم قول الله عز وجل :

« وَانْ تَعْجِبْ لِعَجْبِ قَوْلِهِمْ اعْدَا كَنْسَا تَرَاباً اعْنَانِ لِفِي خَلْقِ جَدِيدٍ
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » سورة الرعد آية ٥

ومن الآيات التي سلكت طريق التأكيد على وقوع البعث وحصوله قوله تعالى : « زَعَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يَبْعَثُوا قَلْبَنِي بِلْ وَرَبِّي لِتَبْعَثُنِي
ثُمَّ لِتَبْيَأُنِي بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (سورة التغابن آية ٧) .
للناس أن الله الذي خلق الإنسان من طين قادر على اعادته وبعثه
الأدلة الخيسية على امكان البعث ، وتحقق الحياة الآخرة ، وتبيّن
للناس أن الله الذي خلق الإنسان من طين قادر على اعادته وبعثه
بعد الممات ، وما على الذين يرتابون في ذلك الا أن ينظروا في آيات
الله في خلقه ، لعل الغشاوة تنجل عنهم فيهتدون إلى الإيمان بالاليوم
الآخر وما فيه - من الآيات التي سلكت هذا الطريق قول الله عز وجل :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ
تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عُلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ
لِتَبْيَأُنِي لَكُمْ وَنَقْرٌ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلٍ مَسْمُىٌ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طَفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشْدَكَمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرْدَى إِلَى أَرْذَلِ
الْعُمُرِ لَكِيَلاً يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا مَاءً اهْتَرَزَتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ . ذَلِكَ
بَأنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ
السَّاعَةَ آتِيَّةٌ لَا رَيْبٌ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبُورِ » .
(سورة الحج : آيات ٥ ، ٦ ، ٧)

ولقد بلغ عدد الآيات التي ردت على مذكري البعث في القرآن الكريم مائة وستة وستين آية . هذا بيان يوضح أرقامها ومواقعها في كتاب الله عز وجل .

اسم السورة	رقم الآية
يونس	٤٨ - ٤٥ - ١٥ - ٨ - ٧
هود	٧
الرعد	٦ - ٥
النحل	٣٩ - ٣٨ - ٢٥ - ٢٤ - ٢٣ - ٢٢
الاسراء	٩٨ - ٥٢ - ٥١ - ٥٠ - ٤٩
الكهف	٤٨
مريم	٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٦٩ - ٨٠
الحج	٧ - ٦ - ٥
المؤمنون	- ٨٣ - ٨٢ - ٨١ - ٧٤ - ٣٧ - ٣٦ - ٣٥
الفرقان	٠ ١١٥ - ٨٩ - ٨٨ - ٨٧ - ٨٦ - ٨٥ - ٨٤ ١٢ - ١١
النمل	٦٨ - ٥ - ٤ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٤
القصص	٣٩
الروم	٣٠
لقمان	٢٨
السجدة	١١ - ١٠
سبأ	٩ - ٨ - ٧ - ٣
يس	٨٢ - ٨١ - ٨٠ - ٧٩ - ٧٨ - ٤٨

تابع بيان الآيات التي ردت على منكري البعث

رقم الآية	اسم السورة
١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٥١ -	الصافات
٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ -	
٥٩	
٦ - ٧ - ٤٥	فصلت
٣٤ - ٣٥ - ٣٦	الدخان
٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٣٣ - ٣٤	الجاثية
١٧ - ١٨ - ٣٣	الأحقاف
٣ - ٤ - ٥ - ١١ - ١٥	ق
٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢	الذاريات
٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣	الواقعة
٧	التغابن
٧	البَيْن
٤٦ - ٤٧ - ٥٣	المدثر
٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٤٠	القيامة
٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤	المرسلات
١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤	النازعات
٩ - ١٠	الانفطار
- ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ -	المطففين
١٧	
١٤ - ١٥	الإنشقاق
٧ - ٨	الثين
١ - ٢ - ٣	الماعون

ولقد كانت العقيدة المشوّشة بشأن البعث والحياة الآخرة عند أكثر العرب في الجاهلية عاملًا من العوامل التي زادت من احساسهم بالموت وقلقهم منه .

« إذا كان الخوف من الموت هو الشعور العام عند كل إنسان ، فإن هذا الشعور يتناقص كلما ازداد الإيمان بأن هناك لها واحدا ، وأن هناك بعثاً وحياة أخرى بعد الموت ، وأن هناك حساباً ونعيماً وعداباً . إذا آمن الإنسان بكل ذلك يتلاشى عنده الاحساس بالخوف من الموت ، وتحل بدلاً منه سكينة دائمة .

وتؤيد الدراسات الاحصائية النفسية ذلك اذ ثبت منها زيادة قلق الموت لدى انخفاض قوة الاعتقاد الديني » (١٢) .

* * *

(١٢) انظر : قلق الموت : د. أحمد محمد عبد الخالق ، عالم المعرفة - الكويت - مارس ١٩٨٧ .

البَلَادُ الْثَانِيَّ

أنماط شعر الموت في العصر الجاهلي

الفصل الأول : رثاء النفس .

الفصل الثاني : رثاء الآخرين .

الفصل الثالث : الحكمة .

الفصل الأول

رثاء النفس

الرثاء هو الفن الشعري الذي تطور عن بكاء الميت والتحسر على فقده وعند الموت يكون الحزن والاشفاق ، ومحاولة التصبر والتعزى وقد كان النساء في الجاهلية يطلن التعديد والبكاء إلى سنين معدودة ، وكان لهن في ذلك طقوس وتقاليد يدللن بها على شدة الحزن ، فيلحقن الرءوس ويلطممن الخدود ، ويخرجن تأثثات .

ثم تطور عن هذه الأمور فن الرثاء ، الذي اتخذه الشعراء مستنوداً لعواطف الحزن على الموتى وسجلوا يتذكرون فيه أمجادهم وما ثرهم ، وأداة للتصبر والعزاء وتلمس السلوى .

والعاطفة في الرثاء غالباً ما تكون صادقة ، ويتفاوت صدق العاطفة حسب الصلة التي تربط الشاعر بالموتي ، فهي في رثاء الأبناء والأباء ، والزوجات أقوى وأصدق منها في رثاء غيرهم من الناس .

وعلى هذا فالعاطفة في رثاء النفس تكون أقوى العواطف وأصدقها ، فليس أقرب للإنسان من نفسه .

ورثاء النفس يكون عند حضور الموت أو قرب حضوره - أو تخيل واحد من الأمرين فحضور الموت غالباً ما يتصور في حالات الأسر أو الاصابة في الحرب . عندئذ يتصور الفارس الشاعر نفسه مودعاً الحياة ، محمولاً إلى القبر ، فيتأثر بذلك ، ويتخيل ما يكون بعد موته من بكاء زوجه وذويه ويتم أبنائه من بعده ، ثم يأخذ في التعزى

والتصبر ، بتذكر أمجاده السالفة ، ومآثره الباقية ، ومكرماته التي سيدركه الناس بها ، ففي كل ذلك استبقاء لذكره وخلود لسيرته .

أما تخيل الاحتضان فغالباً ما يكون عند بلوغ الشاعر أرذل العمر ، فتضعف قوته ، وتقل عند قومه قيمته ، فلا يؤبه به ولا يعتد برأيه ، فتقل هموم الشيخوخة عليه ، ويذكر شبابه ، وما كان يحفل به من بطولات ومآثر ثم لا يغنى تذكره شبابه شيئاً ، فقد سل المثيب عليه سيفه ، وجراحته من قوته وأذهب لحمه وأوهن عظمه ، وأضعف بصره . عندئذ يتجل الشاعر الموت ويستحضره ، ويشكوا بشه وحزنه .

وفي مجال البحوث النفسية الحديثة «برهن عدد من الدراسات على وجود علاقة موجبة بين قلق الموت وقلق الزمن ... ان الوعي بالزمن يمكن أن يكون في الحقيقة أحد مكونات قلق الموت ذاته ، ويؤكد ذلك أن الانشغال بالتغييرات الجسمية وبحالة الجسم يرتبط بقلق الموت» (١) .

والحق أن رثاء النفس في الشعر الجاهلي أقل بكثير من رثاء الآخرين ويقاد يكون رثاء النفس مقصوراً على طائفتين من الشعراء . فئة من الشعراء الفرسان ، وفئة من الشعراء المعمرين .

وأعتقد أن الشعراء الذين رثوا أنفسهم جديرون بالتعريف بهم على أنهم فئة متميزة من الشعراء . خاصة وأن كثيراً منهم من الشعراء المغموريين وإن كان بينهم بعض المشهورين .



(١) قلق الموت : د. أحمد محمد عبد المخالق .

الشعراء الذين رثوا أنفسهم

٦ - أمرؤ القيس

هو أمرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي ، من أهل نجد من شعراء الطبقة الأولى ، وهو أشهر شعراء الجاهلية ؛ يقول مؤرخو الأدب عنه (أنه أول من وقف واستوقف وبكا واستبكى) وذلك اشارة الى قوله :

قفـا نـيـلـكـ مـنـ فـكـيرـيـ حـبـيـبـ وـمـنـزـلـ

الخ

كان أبوه ملكاً على قبيلة بنى أسد ، ثم ثاروا عليه فقتلوه ، ولما بلغ أمراً يقيس نباً قتله أبيه قال : «اليوم خمر وغداً أمر» . وقد كانت حياة أمرىء القيس شطرين . الشطر الأول قبل مقتل أبيه وكان فترة لهو وتفلت واستمتع بالخمر والنساء ، والشطر الثاني بعد مقتل أبيه ، وكان فترة أسفلاً ولعنة للشار ، ومحاولات لاسترداد الملك المسلوب ، والانتقام من بنى أسد قتلة أبيه .

ففقد كانت حادثة مقتل أبيه حدا فاصلاً بين حياة لاهية ماجنة ،
مبصرفة في الهر و المجنون ، و حياة جادة حاول فيها الانخذ بشار
أبيه ورجع سلطان كندة على بنى أسد ، لكن محاولاته باعت بالفشل ،
فلم يحصد غير الحزن و المشقاء ، (وكأنه كان يحس ما ينتظمه حين
قال :

کانسٹیتوشن ایم ار کنٹر جے وادل ملکیۃ

ولم أتبطئن كاعبيا ذات خلقيا

ولم أسبأ السنة الروي ولم أقبل

لخیلی کریک کبرة بعد احتمال (۲۰)

(٢) انظر: د. شوقى ضيف . المصر الجاهلى من ٢٥٨ - (٥ - الشعر الجاهلى)

أما شعره الذى أعده من برثاء النفس فمنه هذه الأبيات :

أرانا موضعين لأمر غيب ونبحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذئان ودود واجرا من مجلحة الذئاب (٣)
وكل مكارم الأخلاق قسارت اليه همتى وبه اكتسابي
في بعض اللوم عاذلت فائى ستكفيني التجارب وانتسابي
إلى عرق الثرى وشجت عروقى
وهذا الموت يسلبني شيئاً (٤)

ونفسي سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكا بالتراب (٥)
النم أنفس المطى بكل خرق
أمق الطول لداع السراب (٦)
وأركب فى اللهم المجرحتى أناى ماكل القح المغائب (٧)
وقد طبوفت فى الآفاق حتى
رضيت من الغنيمة بالآيات
بعد الحارت الملك ابن عمرو
وبعد الخير حجر ذى القباب (٨)

(٣) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما ت يريد .

(٤) وشجت : اشتبتت واتصلت ويشير بعرق الثرى إلى آباءه الذين ماتوا .

(٥) جرمى : جسمى .

(٦) أنفس المطى : أهز لها بطول الريشة . الخرق : الفلاة : أمق الطول :
واسع الطول .

(٧) اللهم : الجيش الكثيف . الجر : الكثير . المأكل : الغائم .
القح : جمع قحمة من الاقتحام ، والمراد : التزاحم فى شدة .
المغائب : الواسعة .

(٨) القباب : النخيم الكثيرة .

أرجى من هروف الدهرلينا
 ولم تغفل عن الصم الهضاب (٩)
 وأعلم أننى عما قليل سانشب فى شبا ظفر وناب (١٠)
 كما لاقى أبي حجر وجدى ولا أنسى قتيلًا بالكلاب (١١)
 ان الشاعر فى هذه الأبيات فى حالة تأمل لما يصير اليه الناس ،
 فالكل يكدر الى الموت كدحا ، ويسرع اليه اسراعا ، لكن الانشغال
 بالطعام وبالشراب يلهى الناس عما ينتظرون ، ويدخلهم عن مصيرهم .
 ان التجارب التى عاشها الشاعر فى الشطر الثانى من حياته هي
 التى بصرته بتلك الحقيقة ، وأيقظت فى نفسه تلك المشاعر .

انه ما يزال يذكر مكارمه وعلو همته وتجاربه وشرف نسبه لكن
 ذلك كله لن يغنى عنه شيئاً أمام هذا المصير المرتقب ، الذى سبقه
 اليه آباءه وأجداده ، فالموت مدركه لا محالة ، والتراب مثواه الذى
 لا مفر منه .

وعندما يصل الشاعر الى هذا الحد فى استحضار مصيره
 وتخيل قبره ، يحاول التعزى بتذكر بعض ما كان فى حياته من
 مواقف ، ويتعجب من تبدل حاله من قوة وشجاعة واقدام وبطولة الى موت
 وشيك وفناء قريب . ألم يكن رحالة ذا اسفار طويلة يجب فيها الصحراء
 الواسعة الطويلة العريضة المخوفة المهلكة للابل !؟ ألم يكن محاربا
 شجاعا يقود الجيش الكثيف !؟ ألم يكن جريئا مقداما يستحوذ على
 غنائم الاعداد ويسلبهم ما بآيديهم !؟

(٩) الصم : المسمة الصلبة . الهضاب : الجبال .

(١٠) شبا كل شيء : حده . أنسشب : أعلى .

(١١) قتيل موقعة الكلاب : هو شرجبيل عم امرئ القيس .

لُكْ تَعْجَبُ الشَّاعِرُ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَزُولُ ، فَهَا هُوَ ذَا يَرْضِي مِنَ الْغَنِيمَةِ
بِالْأَيَّابِ وَيَقْبِيلُ رَاضِيَ الْمَصِيرِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ ، وَهُلْ يَمْلِكُ شَيْئًا غَيْرَ
ذَلِكَ ؟ ! أَنَّهُ الْمَصِيرُ الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ اجْتِدَادُهُ الْمُلُوكُ الْفَرَارُ مِنْهُ
أَبْعَدَ أَوْلَئِكَ النَّسَادَةِ يَنْتَظِرُ الشَّاعِرُ خَلْوَدًا فِي الْحَيَاةِ ؟ ! وَأَنِّي لَهُ
أَنْ يَقْلُتُ مِنْ قَبْضَةِ الْفَنَاءِ ، وَالْهَضَابِ الصِّمِّ وَالْجَبَالِ الصلبة تَفْنِي ؟ !

وَيَرِى الشَّاعِرُ مَوْتَهُ قَرِيبًا ، وَنَهَايَتِهِ وَشِيكَةً ، وَيَتَذَكَّرُ أَبَاهُ
وَجَدُّهُ وَعُمَّهُ الَّذِينَ سَقُوا إِلَى الْمَوْتِ أَوْ سَبَقُوهُ الْمَوْتَ إِلَيْهِمْ :

وَأَعْلَمُ أَنِّي عَمَّا قَلِيلٍ سَانَشَبَ فِي شَبَابِهِ ظَافِرٌ وَنَابٌ
كَمَا لَاقَ أَبِيهِ حَجَرٌ وَجَدِيٌّ وَلَا أَنِسِي قَتِيَّلًا بِالْكَلَابِ
وَلَقَدْ وَافَتِ الشَّاعِرُ مِنْيَتِهِ وَهُوَ غَرِيبٌ عَنْ دِيَارِهِ ، بَعْدَ اِنْصِرَافِهِ
مِنَ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ فِي تَلْكَ الرَّحْلَةِ الَّتِي قَصَدَ بِهَا قَيْصِرُ الرُّومِ لِيَطْلُبَ مِنَهُ
الْمَعَاوِنَةَ عَلَى اسْتِرْدَادِ مَلَكِ كَنْدَهُ ، وَلَقَدْ قَيْسَلَ أَنْ رَجُلًا مِنْ بَنْيِ أَسَدِ
يَقَالُ لَهُ (الطَّمَاحُ) وَشَى بَامْرِيَءِ الْقَيْسِرِ عَنْدَ الْقَيْصِرِ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ
كَانَ يَوْاصلُ إِبْنَتَهُ ، وَأَنَّ لَهُ فِيهَا أَشْعَارًا تَفْضُحُهَا وَتَفْضُحُ أَبَاهَا ، فَأَرَادَ
الْقَيْصِيرُ الانتِقامَ مِنَ الشَّاعِرِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بَحْلَةً وَشَى مَسْمُوَةً مَنْسُوجَةً
بِالْذَّهَبِ ، فَلَمَّا لَبِسَهَا أَسْرَعَ فِيهِ السُّمُّ وَسَقَطَ جَلْدُهُ ، فَقَالَ :

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَاحُ مِنْ بَعْدِ أَرْضِهِ
لِيَلْبِسَنِي مَمَّا يَلْبِسُ أَبْؤُسَهَا

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسُ تَمَوْتُ سَوَّوْيَةً
وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسْقَطُ أَنْفَسَهَا
وَاحْتَضَرَ بِبَلْدَةٍ مِنْ بَلَادِ الرُّومِ تُسَمَّى أَنْقَرَهُ ، فَكَانَتْ أَرْضُهَا مَحْلٌ
نَهَايَتِهِ وَنَهَايَةُ قَصْتَهُ كَمَا قَالَ :

رَبُّ خَطْبَسَةِ مَسْحَنَفَرَةٍ وَطَغْنَسَةِ مَثْعَنَجَرَةٍ

وْجْفَنَةُ مُتَحَيِّرَةٌ حَتَّى بَارْضُ اِنْقَرْهَةٍ

ورأى قبر امرأة في ذلك الموطن ، أخبر أنها ماتت غريبة مثله
فدفنت في سفح جبل يقال له عسيب ، فقال :

وَانِي مَقِيمٌ مَا اَقَامَ عَسِيبٌ	اجْهَارْتَنَا اَنَّ الْمَزَارَ قَرِيبٌ
وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ	اجْهَارْتَنَا اَنَا غَرِيبِيَانُ هَا هَنَا
وَمَا هُوَ آتٌ فِي الزَّمَانِ قَرِيبٌ	اجْهَارْتَنَا مَا فَاتَ لِيَسْ يَئُوبُ
وَلِيَسْ غَرِيبًا مِنْ تَنَاعُتِ دِيَارِهِ	وَلِيَسْ غَرِيبًا مِنْ وَارَاهُ التَّرَابُ غَرِيبٌ

وهكذا نرى امراً القيس في ذلك النثر الرقيق منهزمًا أمام الموت ،
يلقاء غريبًا ، بعيداً عن دياره بعد أن ملا الدنيا صخباً بمغامراته
وأسفاره وأشعاره ، وهو هو ذا يتمنى نسباً بامرأة ماتت غريبة مثله ،
وهو يعلم أن ذلك النسب لا ينفع ولا يشفع ، ثم مات الشاعر دفن
إلى جنب تلك المرأة ، فقبره هناك .



٣—بشر بن أبي خازم

أحد شعراء بنى أسد وفرسانها المقدمين ، يحفل شعره بالحماسة والفخر ، ويكثر فيه الحديث عن أيام بنى أسد وحروبها التي انتصرت فيها كما أن له شعرا في المديح والهجاء والوصف والغزل والرثاء .
وله ديوان شعر مطبوع ، وقد عده ابن اسلام في الطبقة الثانية من الفحول (١٢) .

كان بشر كثير الغزو والاغارة ، وفي احدى غزواته أصيب ابنته عميرة التي تخيلها ، منتظرة عودته ، مشتاقة إلى أبيها ابنته عميرة التي تخيلها ، منتظرة عودته ، مشوقة إلى أبيها وما يحمله معه من غنائم ، فهي تسأل عنه زملاءه الذين كانوا معه في الغزو ، وتبحث عنه بينهم .

يرسم الشاعر هذه الصورة لفتاته التي اعتادت أن يعود أبوها من كل غزواته سالماً غائماً ، لكنه يخبرها أنه لن يعود هذه المرة ، فيقول :

أسائلة عميرة عن أبيها	خلال الجيش تعترف الركابا
تؤمل أن أوب لها بنهب	ولم تعلم بأن السهم مبابا
فرجي الخير وانتظرى ايابى	اذا ما القارض العنزي آبا
والقارض العنزي رجل من عنزة . قالوا انه خرج يطلب القرظ	
فهلك ولم يعد ، وبه يضرب المثل في امتداد الغيبة واليأس من العودة ، وبشر بهذا البيت ، يريد أن يقطع رجاء ابنته في عودته	

(١٢) راجع بشر بن أبي خازم حياته وشعره – رسالة ماجستير مخطوطة ~ بكلية اللغة العربية – حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام .

وأن يصرفها عن الأمل والانتظار . لكن الطريقة التي عبر بها الشاعر عن هذا المعنى توحى بالحسرة والحزن الشديدين ، وتدل على ما كان يعانيه الشاعر في ذلك الموقف الرهيب ، وهو يموت جريحاً ويتذكر ابنته التي تنتظره وترجو عودته . ففي البيت الأخير تعبير عن الأمل المرجو بالنجاة والعودة يعقبه تعبير عن اليأس منها ، طمع ثم يأس ..
وكان الشاعر يسخر من أمل ابنته في عودته . إذ يربط عودته بعودة القارظ العنزي وما دامت عودة القارظ مستحيلة فإن عودة الشاعر مستحيلة كذلك .

فرجي الخير وانتظرى ايايى اذا ما القارظ العنزي آبا

ثم يسوق الشاعر الى ابنته خبر اصابته بسم قاتل ، رماه به فتى من الاعداء يشتعل حماسا وفتوة ، ولم يرد الشاعر ان يترك ريبة فى نفس ابنته من ذلك الامر ، فساق لها الخبر مؤكدا عن طريق استخدام الجملة الاسمية المؤكدة بان ، وعن طريق التكرار ، فقال :

ثم يعين الشاعر لابنته مكانه الذي سيقبر فيه ، لعل أحداً يسأل عنه ، أو لعل أحداً يريد أن يزوره عند مثواه الأخير .

فمن يأك سائلا عن بيت بشر

فان له بجنوب الرده ببابا

رہین بلى وکل فہتی سیپلی

فأذري الدموع وانتحبِي انتخاباً

ثوى فى ملحد لا بد منه كفى بالموت نايا واغترابا
وغيري الشاعر مصيره ويدرك انه قد أصبح رهين البلى والفناء ،
فيطلب من ابنته أن تبكيه وتذرى الدمع وتنتحب من أجله ، ولعله
اراد أن يتعزى ويتصبر بذلك عن مصيره الذى آل اليه . نائيا عن
داره وأهله وابنته ، غريبا فى أرض بعيدة غريبة ليس لها انقطاع
ولا منها رجوع .

كفى بالموت نايا واغترابا !



٣— عبيد بن الأبر من

هو من شعراء الجاهلية القدماء ، وهو من بقى أسد ، كان معاصرًا لامرئ القيني ، وكان من المفترىين ، وقد قتله المنذر بن أمرئ القيس اللخمي بن ماء السماء في يوم بؤسه ، فقد كان لهذا الملك يوم بؤس ويوم نعيم ، وكان يقتل أول من رأى في يوم بؤسه ، فخرج في يوم بؤسه فلقى عبيدا ، فقال له : هل كان المذبوح غيرك يا عبيد ؟ قال : أنتك بحائن رجاله) فقال له : (أنشدنا يا عبيد) ، فقال (حال الجريض دون القرىض ، وبلغ الحزام الطبيين) فقال الملك أنشدنا فقال : (المنايا على الحوايا) فقال بعض القوم : (أنشد الملك هيلتك أملك) ، فقال : (وما قول قائل مقتول ؟) وقال آخر : (ما أشد جزعك بالموت) فقال : (لا يرحلن رحلتك من ليس معك) فقال الملك قد أمللتني فارحنى قبل أن أمر بك فقال عبيد : (من عز بز) فقال الملك : أنشدنا قولك : أفتر من أهله ملحوظ فانشده : أفتر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيده

وقد صار هذا البيت مثلاً في الملاك . ثم قال الملك لعبيد : لايد من الموت فاختر ان شئت من الاكحل ، او من الابجل ، او من الوريد ، فقال عبيد : ثلاثة خصال كصحابات عاد ، واردها شر وراد ، وحاديها شر حاد ، ومعادها شر معاد ، ولا خير فيها لمرتاد ، وعند قتله قال :

وخيمني ذو المؤس في يوم بؤسه

بخلال ارى في كلها الموت قد برق

كما خيرت عاد من الدهر مرة
سحائب ما فيها لذى خيرة انتى
سحائب ريح لم توكل ببلدة
فتتركها الا كما ليسلة المطلقي (١٣)



(١٣) راجع خزانة الأدب للبغدادي ، ت : هارون ج ٢ ص ٢١٧
الخانجي ، سعادت الله بن ابراهيم

كـ— عبد يغوث الحارثي

هو عبد يغوث بن صلاة ، من بني الحارث بن كعب من كهlan ، من اليمن (عرب الجنوب) كان رجلاً عظيم الجسم جميلاً ، وكان كريماً وفارسياً معدوداً وسيداً في قومه ، قاد قومه يوم الكلاب الثاني على بني تميم وأحلافهم ، فقتل وأسر من قومه عدد كبير ، ثم وقع هو في الأسر :

وأراد عبد يغوث أن يفتدي نفسه بمائة من الأبل ، ولكن بني من بني الحارث فارس معدود ، فلابد من قتل عبد يغوث بالنعمان فكان مقتل عبد يغوث في عام ٦١٣ م قبل الهجرة بنحو عشر سنين .

ولما عزم بنو الitem على مقتل عبد يغوث شدوا لسانه بنسعة مخافة أن يهجوهم ، فقال : انكم قاتلوا ولابد ، فدعونى أذم أصحابي وأنوح على نفسي ، فقالوا : إنك شاعر ونخاف أن تهجونا ، فعقد لهم إلا يفعل . فاطلقوا لسانه ، وأمهلوه حتى قال قصيده التي رشى فيها نفسه (١٤) ، وبدائها بدفع الملامة والذم عن نفسه ، ونفي تهمة التقصير عنها ، وقرر أن اقدامه وجرأته هما سبب وقوعه في الأسر ، ولو كان جباناً لفتر على فرسه السريعة ونجا بنفسه ، وهو اذ يقرر ذلك يلوم قومه ويتعتب عليهم . لكنه في الوقت نفسه يعترف بأنه لا خير في اللوم له ولا لهم ، وينصرف إلى نفسه يصور معاناتها الرهيبة في الأسر ومواجهة الموت ، يقول عبد يغوث :

(١٤) راجع : قصيدة عبد يغوث وقصيدة أسره في العقد الفريد ج ٥ ص ٢٢٨
ط دار الكتاب العربي - بيروت .

ا لَا تَلُومَنِي كَفِيَ اللَّوْمُ مَا بِيَا

فَمَا لِكُمَا فِيَ اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا (١٥)

الْمُتَعَلِّمُ ا نَ الْمَلَمَةَ نَفْعُهَا

قَلِيلٌ ، وَمَا لَوْمَيْ أَخْيَرَ مِنْ شَمَالِيَا (١٦)

فِيَا رَاكِبَا ا مَا عَرَضْتْ فِيْ بَلْفَنْ

نَدَامَيِّ ا مِنْ تَجْرَانْ ا نَ لَا تَلَقِيَا (١٧)

جَزِيَ اللَّهُ تَسْوِيْنِ بِالْكَلَابِ مَلَمَةَ

صَرِيحُهُمْ وَالآخَرِينَ السَّوَالِيَا

وَلَوْ شَئْتْ نَجَتِنِي مِنَ الْقَوْمِ نَهَدَةَ

تَرِي خَلْفَهَا الْحَوْ الْجِيَادَ تَوَالِيَا (١٨)

وَلَكِنِي أَحْمَى ذَمَارَ ابْيِكَمْ

وَكَادَ الرَّمَاحَ يَخْتَطِفَنِي الْمَحَامِيَا (١٩)

ثم يصور الشاعر فعل آسريه به ، ويحكى ما دار بينه وبينهم من حديث ، فقد توسل اليهم أن لا يربطوا لسانه ، وطلب منهم أن يخلوا سبيله ، بعد أن ملأوه وأصبح أسيراً لديهم ، ويؤكد لهم أنه برىء من دم صاحبهم النعمان بن الحسخاس وأنه لم يقتله ، ويعرض

(١٥) في شرح المفضليات القسم الثاني ص ٦٠٧ قصيدة عبد يغوث وشحرها ، ومنه نقلت هذا الشرح . يقول : كفى اللوم ما أنا فيه ، فلا تحتاجون إلى لومي ، مع ما ترون من اسرى وجهدي .

(١٦) شمال ، بالكسر : بمعنى الخلق . والجمع شمائل .

(١٧) عرضت : تعرضت وظهرت ، وقيل معناه : بلغت العروض وهي جبال نجد . وهؤلاء كانوا نداماه هناك ، فذكرهم عند موته وحن إليهم .

(١٨) النهة : المرتفعة الخلق ، وكل ما ارتفع يقال له : قد نهد والحواء من الخيل التي تضرب إلى خضرة . وتواليها : أي تتلوها .

(١٩) الذمار : ما ينجب منه وحفظه ، من منع جار ، أو طلب ثار ، ويختطفن : يختلسن .

عليهم أن يأخذوا مالا فدية له ، لكنهم رفضوا . يقول عبد يغوث :
 أقول وقد شدوا لسانى بنسعة
 أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا
 فان احائم لم يكن من بوائيا
 فان تقتلونى تقتلوا بى سيدا
 وان تطلقونى تحربونى بماليا (٢٠)

وتكرار النداء فى قوله (أمعشر تيم) فى الأبيات السابقة يدل
 على تلهف الشاعر على أن يستجيب آسروه لطلبه ، وأن يسمعوا لقوله ،
 وعلى تعلق الشاعر بالأمل فى أن يعفوا عنه ورجائه النجاة
 وحرصه عليها .

ان الشاعر فى هذا الوقت العصيب يدرك ان خطوات معدودة بينه
 وبين الموت وهو فى تعلقه بالحياة وحرصه عليها لا يملك غير
 أن يستعيد ذكرياته الحلوة يسلى بها نفسه ، ويتسائل متعجبًا :
 أحقا حانت لحظة الوداع ، فلن يسمع بعد أناشيد الرعاعة ؟ ويا لها
 من مرارة يحسها ذلك الشاعر الفارس عندما تسخر منه امرأة
 عبشمية ، وتعيره بالأسر .

فقد قيل أن الذى أسر عبد يغوث هو عصمة بن أبير التيمى وانه

(٢٠) أقول وقد شدوا .. الخ هذا مثل واللسان لا يشد بنسعة ، وإنما
 أراد أفعلوا خيرا ينطق لسانى بشكركم ، فانكم ما لم تفعلوا فلسانى
 مشدود لا أقدر على مدهكم ، وقال أبو عبيدة : كانوا قد شدوا
 لسانه مخافة هجائه ، فجعل لهم الا يهجوهم ، فأطلقوا لسانه .
 أسجحوا : سهلوا ويسروا فى أمرى . يقول : لم أقتل صاحبكم
 ولست له بواء . أى لم يكن أخوكم نظيرا لى فاكون بواء له .

خباه عند رجل يسمى الاهم ، فوضعه الاخير عند امراته العبشمية ،
حتى أخذه بنو الحسحاس ليقتلواه .

وروى أن امرأة الاهم اعجبها جمال عبد يغوث وكمال خلقه ،
وكان عصمة الذى أسره غلاماً نحيفاً ، فقالت المرأة لعبد يغوث من
أنت ؟ فقال : أنا سيد القوم . فضحك وقالت : قبحك الله سيد قوم
حين أسرك مثل هذا ! (٢١) .

يصور عبد يغوث كل ذلك فيقول :

أحقا عباد الله ان لست ساماعا
نشيد الرعاء المعزبين المتاليا (٢٢)

وتضحك من شيخة عبشمية
كان لم ترى قبلى أسيرا يمانيا

ويذكر الشاعر فى خضم محنته زوجته مليكة ، وكان سخرية
العشمية منه جعلته يخشى أن يهون فى عين امراته فاراد أن يذكرها
بما تعلمته عنه من شجاعة وبطولة ، ثم يتذكر الشاعر طرثاً من
تأثيره السالفة ، يتعزى بذلك عما وقع له وحل به ، فيقول :

وقد علمت عرسى مليكة أنى
انا الليث معدوا عليه وعاديا
واعقر للشرب الكرام مطيقى
واصرع بين القينتين ردائيا

(٢١) انظر العقد الفريد : ج ٥ ص ٤٤٨ .

(٢٢) المعزب : المتنحى . المتالى : قد نتج بعضها وبقى بعض .

وَكُنْتَ إِذَا مَا الْخَيْلَ شَمَّصَهَا الْقَنَاءِ
 لِبِيقَا بِتَصْرِيفِ الْقَنَاءِ بِنَانِيَا
 وَعَادِيَةِ سَوْمِ الْجَرَادِ وَزَعْتَهَا
 بِرَمْحِيِّ وَقِدِّ إِنْحَوَا إِلَى الْعَوَالِيَا
 كَانَ لَمْ أَرْكَبْ جَيْوَادَا وَلَمْ أَقْلِ
 لَخِيلِيَّ كَرِيَ نَفْسِيَ عَنْ رَجَالِيَا
 وَلَمْ أَسْبِا زَقَ الرَّوْيِ وَلَمْ أَقْلِ
 لَأَيْسَارِ صَدْقِ اعْظَمُوا ضَوءَ نَارِيَا (٢٣)

ذلك هو الماضي الذي يفخر به الشاعر ، ويتعزى به مما حدث له ، وحسبه أن مليكة تعرف شيمه وأخلاقه ، ولابد أنها ستغفره وتدرك أن أسره كان بسبب جرأته وقادمه ، ويشهد له ماضيه ، فهو الشجاع الكريم ، كان نحراً للجزور ، يعقر لاصحابه ونداماه مطيته ، ويشق بين القينتين في مجلس اللهو والطرب رداءه ، وكان صاحب رحلات وأسفار يقطع القفار الموحشة وينزل الأماكن المخوفة ، ويمضي في الأماكن التي لا يجرؤ أحد على السير فيها ، وكان في الحروب فارساً لا يشق له غبار ، خيراً بتصريف القناة ، قادراً على إنقاذ زملائه من الشدائـ ، وتنفيس كرب الحرب عنهم .

وعبد يغوث وهو يذكر تلك المآثر يعبر بصيغة الماضي . لكنه يعود إلى حاضره ، فها هو ذا يواجه الموت وتوشك حياته على

(٢٣) الشرب : جمع شارب . كصاحب وصاحب . السباء : اشتراء الخمر للشرب لا للبيع . وال AISAR : الذين يضربون القداح .

نهايتها ، فيشعر بأن كل ما كان من مجد وبطولة ذهب هباء فلم يشفع له منه شيء . ولم يغرن عنه ماضيه في محنـة أسره وقتلـه شيئاً ، ذلك ما عبر عنه في نهاية قصيـته اذ يقول :

كـانـى لـم أـرـكـب جـوـادـا وـلـم أـقـلـ
لـخـيـلـى كـرـى نـفـسـى عـن رـجـالـيـا
وـلـم أـسـبـا الـزـق الـرـوـى وـلـم أـقـلـ
لـأـيـسـار مـدـقـ اـعـظـمـوـا خـمـوعـ نـارـيـا



٥ — عمرو بن قميئه

هو عمرو بن قميئه بن ذريح بن سعد بن مالك ، أحد بنى ضبيعة
ابن قيس بن ثعلبة من بنى بكر بن وائل .

مات أبوه وهو صغير ، فكفله عمه مرثد بن سعد ، وكان عمرو
جميلاً فافتنت به زوجة عمه ، لكنه أبى عليها ، فدببت له مكيدة
انتقاماً منه ، وزعمت لزوجها أن عمراً ابتغاهما ، وخاف عمرو
سيطرة عمه ، فهرب إلى الحيرة ، ولجاً إلى المنذر بن ماء السماء ،
وقال شعراً مدح فيه عمه ، وتبرأ فيه مما اصطلحت به زوجه ، فلما
رضي عنه عمه عاد إلى قومه .

وخدم عمرو بن قميئه الملك حجر بن الحتارث والد انتئي
القيس ، وأضطربت امرأة القيس في رحلته إلى بلاد الروم ، وهو المعنى
بقول أمياء القيس :

بَكِي صَاحْبِي لِمَا رَأَى الدُّرْبَ دُونَه

وَإِيْقَنْ أَنَا لِأَخْتَلِّنْ بِالْيَمْسَرِ

وكان عمرو أثناء هذه الرحلة طاعناً في السن ، ويبدو أن
بكاءه كان اشفاقاً على نفسه الضعيفة ، وخوفاً من الموت في الغربة .

وقد توفي أثناء هذه الرحلة ، وسمته العرب عمراً الضائعي
وكان وفاته قبل الإسلام بنحو سبعين سنة (٢٤) .

وقد وصف عمرو فعل الدهر به ، ورمييه آياه بالصلائب ،
وعجزه وذهب قوته بسبب كبر سنّه ، وأخبر أن الناس يأخذهم

(٤٤) راجع تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ بد ١ ص ١١٤ .
والشعر والشعراء ص ٢٣٨ .

العجب عندما يرونه بهذا الوصف ، ويتساءلون في دهشة : ألم تكن
جليداً قوياً !

وفي حسرة وثعجباً من انصرام الأيام وانقضاض الأعوام يصف
عمرو بن قميئه ما فعلته به أحداث الدهر ، وفي دقة وبراعة يصور
هيثنَه عندما يروم القيام ، فيتسند على عصاه مرة وعلى راحتيه
آخرى ، ويقوم فيتعثر في محاولاته حتى ينهض بعد ثلاث مرات .

يقول عمرو بن قميئه (٢٥) :

رمتنى بنسات الدهر من حيث لا أرى
كيف بمن يرمى وليس برام
وأهلkenى تامييل ما لست مدركاً
وتامييل عسام بعد ذاك وعام
وإذا ما رأى الناس قالوا : ألم تكن
جليداً حديث السن غير كهام
فلو أنى أرمى بنبييل رميتهما
ولكننى أرمى بغير سهام
على الإاحتين مرة وعلى العصا
أنسوء ثلاثة بعدهن قياماً
كأنى وقد جاوزت تسعين حجة
خلفت بهما عنى عذار لجامى

(٢٥) راجع تاريخ الأدب العربي - فروخ ج ١ ص ١١٤ . ويعنى بقوله
تأميم ما لست مدركاً الخلود . والكمام : السيف الكليل الذي لا يقطع ،
والبيت الأخير معناه أن العمر انقضى بسرعة وكانه مقدار ما يخلع
الرجل للجام من رأس دابته .

ويبدو أن كل المعمرين تنتابهم تلك المشاعر المتناقضة يسامون
الحياة ، ويستقلون مدعها في أن .

كما يقول أثمن بن صيفي حكيم العرب وخطيبهم في الجاهلية :
وان امرءا قد عاش تسعين حجة
إلى مائة لم يسام العيش جاهمل
مضت مئتان غير ست وأربع
وذلك من عد الليالي قلائل

لكن الموت خير من حياة المرض والعجز على أية حال ، وأى
قيمة لرجل مله أهله وبنوه ، وأصبح قعيد البيت يقضي الأمر حين
يغيب ولا يستشار وهو حاضر ، ولا يجلس معه إلا أحفاده الصغار
يلاعبهم ويلاعبونه . عندئذ يكون الموت أفضل من الحياة على نحو
ما يلقانا في قول المستوغر (٢٦) :

اذا ما الماء صم فلم ينادي
وأودي سمعه الا نديا
ولاعب بالعشى بنى بنى
ك فعل الهر يحترش العظايا
يلاعبهم وودوا لو سقوه
من الذيفان متربعة ملايا
فلا ذاق النعيم ولا شرابا
ولا يسقى من المرض الشفايا
فذاك الهم ليس له دواء
سوى الموت المنطق بالمنايا
وكما في قول زهير بن جناب الكلبي (٢٧) :

والموت خير للفتى وليه لكن وبه بقيمة
من أن يرى الشيخ البجا ل وقد يهادى بالعشية

(٢٦) طبقات فحول الشعراء ص ٣٤ .
(٢٧) المصدر نفسه ص ٣٧ .

٦ - الأسود بن يعفر

هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم من بني تميم ، كان أحد شعراء العصر الجاهلي وفرسانه ، أسر امرأة من بني نهد في غارة ، وتزوجها ، كان كثير الترحال والأسفار (٢٨) ، سمي الأسود ذا الآثار لأنه ما هجا أحدا إلا ترك فيه آثرا من هجائه ، وهو مجيد غير مكثير ، اختصار المفضل الضبي له قصيدين ، وترجم له ، وفي هامش شرح المفضليات للتبريزى قال : « كان الأسود شاعرا فحلا متقدما فصيحا من شعراء الجاهلية يكثر التنقل في العرب ويجاورهم ، فيذم ، ويحمد ، قوله في ذلك أشعار » (٢٩) .

وقد كبر الأسود ، وكف بصره ، وتوفي سنة ٥٨٥ م تقريباً وقصيدهاته التي أثبّتها هنا قال عنها ابن اسلام :

« وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر ، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته » (٣٠) وهي التي رثا فيها نفسه ، واشتكى في أولها لهم والشهد اللذين لازماه فمنعاه النوم ، وبين أن الحوادث قد عمت عليه أمره ، وسدت عليه سبله ، فاصبح لا يهتدى إلى غاية ، وهذه هي القصيدة وشرحها :

١ - نام الخلى وما احس رقادى

والهم محتضر لدى وسادى

الخلى : الخالي من الهموم ، قوله ما احس : أى لا أجد منه
أثرا . محتضر : حاضر .

(٢٨) انظر : فروخ ، تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٥٨ .

(٢٩) شرح المفضليات : القسم الثاني من ٧٩٠ .

(٣٠) طبقات فحول الشعراء : ص ١٤٧ ، ط شاكر .

٢- من غير ما سقم ولكن شفني
هم أراه قد أصاب فؤادي
يقول : سهرت من غير علة ، ومعنى شفني : أذابني : وذلك لضعفه
وكمبره وعماه .

٣ - ومن الحوادث لا أبالك أنت
ضررت على الأرض بالأسداد
الأسداد : جمع سد . أي عمى على أمري ، فصرت لا تتجه جهة .
فكان المسالك مسدودة على .

٤ - لا اهتدى فيها لوضع تثعه
بین العرّاق وبين ارض مراد

لقد هلك من قبله ذو الاعواد عزيز قومه الذى عمر طويلا ،
ومات آل محرق وآل اياد ، وأهل الخورنق والسدير وبارق ، وفنى
كعب بن مامة مضرب المثل فى الجود ، وأبو دؤاد الأيادى الشاعر
المعروف . لقد هلكوا جميعا ولم يمنعهم من الموت مانع .

٥ - ولقد علمت سوى الذى نبأتنى
أن السبيل سبيل ذى الاعواود
قال أبو عبيدة : ذو الاعواود : جد أكثم بن صيفي . . . كان معمرا ،
وكان من أعز أدل زمانه ، فاتخذت له قبة على سرير ، فلم يلته خلائف
الآمن ، ولا ذليل إلا عز ، ولا جائع إلا شبع . فيقول : لو أغفل

الموت أحداً لاغفل ذا الأعواد ، وإذا كان مصيره إلى الفناء فمن دونه
مشله .

٦ - أن المنية والحتوف كلاهما
يوفى المخaram يرقبان سوادي

يوفى : يعلو وهو مردود على لفظ (كلا) فافرد . والمخaram :
جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل ، والغلظ . ويرقبان بالثنية -
على المنية والحتوف . والسواد : الشخص . يريد أن المنية والحتوف
ترقبه .

٧ - لن يرضيا فى وفاء رهينة
من دون نفسي طار فى وتلادى

الطرف : ما استفاده الرجل . والتالد : ما ورثه عن الآباء .

والمعنى : أن المنية والحتوف لن يرضيا كل ما أملك فداء لنفسى .

٨ - ماذا أؤمل بعد آل محراق
تركوا منازلهم وبعد اياد

٩ - أهل الخورنق والسدير وبارق
والقصر ذى الشرفات من سداد

١٠ - أرضًا تخيرها لطيب مقامها
كعب بن ماما وابن أم دؤاد

١١ - جرت الرياح على محل ديارهم
فكانما كانوا على ميعاد

١٢ - ولقد غنووا فيها بائعم عيشة
في ظل ملك ثابت الأوتاد

غنوا : أقاموا ، يقال : غنينا بمكان كذا وكذا اذا أقاموا به ،
والمعنى : المنزل .

١٣ - نزلوا بانقرة بسيل عليهم
ماء الفرات يجيء من اطoward
الاطoward : جمع طود ، وهو الجبل .

١٤ - فإذا النعيم وكل ما يلهي به
يوما يصـير الى بلـى ونـفـاد

والمعنى : كانوا كذلك ، ففاجأتهم الأحداث بما حولهم وشغلهم هن
ملاهـيـم ، وانتـهـى جـمـيعـهـ إلى البـلـىـ والـزـوـالـ .

ويجد الشاعر في أولئك وغيرهم من رماهم الدهر بسهامه ،
وأذهب نعيمهم وقوتهم العبرة والسلوى ، فيقول :

١٥ - في آل غرف لو بغيت لـى الآسى
لوجـدتـ فـيهـمـ أـسـوـةـ نـفـادـ

١٦ - ما بعد زيد في فتـاةـ فـرقـواـ
قتـلاـ وـنـفـيـاـ بـعـدـ حـسـنـ تـادـ

زيد : قبيلة . قال أبو عبيدة : كان المنذر بن ماء السماء خطب
على رجل من اليمن من أتابـهـ امرأـةـ من بـنـيـ زـيـدـ بنـ مـالـكـ بنـ حـنـظـلـةـ ،
فـابـأـواـ أـنـ يـزـوـجـوهـ ، فـنـفـاهـمـ مـنـ أـرـضـهـ وـدـيـارـهـ ، وـفـرـقـهـ . وـقـولـهـ : بـعـدـ
حسـنـ تـادـ : أـيـ بـعـدـ تـمـكـنـهـ .

١٧ - فـتـخـيـرـواـ الـأـرـضـ الـفـضـاءـ لـعـزـهـمـ
ويـزـيـدـ رـافـدـهـمـ عـلـىـ الرـفـادـ
وـذـلـكـ قـبـلـ أـنـ يـصـابـهـ . وـالـرـفـدـ : الـعـطـيـةـ .

ثم ينتقل الشاعر الى الحديث عن نفسه ، مخاطبا زوجه قائلا :
ان رايتنى الان قد شخت وكمت سنى ، وذهب شبابى ، وضعفت
قوتى ، وغير هىئتى ما حل بجسمى من وهن ، وما أصاب بصرى من
نقص ، وتركت مرافقه الشبان ، وصرت منقادا لا حول لى ولا قوة ،
فما يزال عندي بقية من ماضى وبعض مال وقوة ، فانى أروح الى
بيوت الخمارين ، مرجللا شعري ، مستمتعا بما بقى من شبابى ومالى ،
وإذا كان ذلك حاضرى فانى اذكرك بما حفل به ماضى حياتى من لهو
ومن جد ، فكم استمتعت بالخمر وبالنساء ، وكم سافرت وترحلت ،
وركيت الخيل والنوق ، ورعيت الخصب ، واقتنت الوحوش .
بهذا الماضى يسلى الشاعر نفسه ، ويردد تلوم زوجته ، فيقول :

١٨ - اما ترينى قد بليت وغضبني

ما نيل من بصيري ومن أجلادى

١٩ - وعصيت أصحاب الصباة والصبا

وأطعت عاذلى ولان قيادى

٢٠ - فلقد اروح على التجار مرجل

مذلا بمالى لينا اجيادى

(المذل : كل من قلق بسره حتى يذيعه ، أو بمضجعه حتى يتحول

عنه ، أو بماله حتى ينفقه) .

٢١ - ولقد لموت وللشباب لذادة

بسلافة مزجت بماء غواص

٢٢ - من خمر ذى نطف اغن منطق

وافي بها لدرامم الاسجاد

(ذى نطف ... الخ : بباع الخمر من العجم ، فى صوته غنة ،

وفي وسطه منطقة ، أتى بالخمر ليبيعها بدرامم الاكاسرة . قال

الأصمى : « دراهم الاسجاد كانت عليها صور يكفرون لها ويسيجدون » .
٢٣ - يسعى بها ذو تومتين مشمر
قنات انامله من الفرصاد .

التومتان : اللؤلتان . والجمع : توم . وقد عنى به ساقياً من
المجوس ، ومعنى قنات : احمرت . شبه حمرة لون الشراب بحمرة
الفرصاد وهو صبغ أحمر .

٢٤ - والبيض تمثى كالبدور وكالدمى
ونواعم يمشين بالارفاد

وصف مجلس الشرب بأنه اخالط بهم نساء كالبدور حسناً ، وكالدمى
وهي الصور ، والنواعم ذوات النعمة ، والأرفاد : جمع رفد ، وهي
العطية . وإنما جعلهن كذلك لذا كن يعملن خلنج الندامى فيلقينها
عليهم .

والبيض يرمين القلوب كأنها
أدھى بين صریمة وجمساد
قصد الى تشبيه النساء ببيض النعام .

٢٥ - ينطقن معروفا وهن نواعم
بيض الوجوه رقيقة الاكباد

٢٦ - ينطقن مخفوض الحديث تهامساً
فبلغن ما حاولن غير تناد

قال الأصمى : « يبلغن من الرجال ما أردن بأيسر سعي » .
ولما فرغ من ذكر ما تمتلك به فى ماضيه من لهو بالنساء
بسکر ، مما يدل على أنه كان فتي غنياً مرفهاً ، ذكر ما حفل به

شبابه الذاهب وماضيه المنصرم من شجاعة واقدام ومنعة مكنته من نزول
المراعي الخصبة التي تجري بها المياه غير خائف ولا متربق ، واتخاذ
أماكن في حماه لا ينazuه فيها أحد .

ولقد كان يستخدم فى أسفاره ورحلاته فرسا جيدا طويلا القوائم ،
لا يفوته الوحش ، أو ناقة شديدة سرعة .

ويبدو أن تذكر الشاعر للهوة ومنتعنه لم يكن كافياً ليتعزى به ويتصبر ، فجمع إليه الحديث عن الشجاعة والعز والمنعة ، محاولاً أن يتسلّى بما أصابه من ضعف في قوته وبصره بعد أن أدركه الكبير ، فقال :

٢٧ - ولقد غدوت لعازب متنادر

الرواد المذانب مؤنق احوى

أرَاد بالعازب كلاً ، والعازب : المتنحى ، وقوله : متناظر : أى يتناظره الناس للخوف منه ، والمذنب : جمع مذنب ، وهو مسيل ماء صغير من الحرة الى الوادي ، والاحوى : الذى اشتدت حضرته حتى يضرب الى السواد . والمؤنق : المعجت . والرواد : جمع رائد ، وهو الذى يرود البلاد فى طلب المراعى .

۲۸ - جادت سواریه و آزر نبته

نفا من الصفراء والزياد

الصفراء والزياد : ضربان من العشب ، والنفا : نبت .

٢٩ - بالجو فالامرات حول مغامر

فِي بُطْرَاجِ فَقْمِيَّةِ الطَّرَادِ

هذه مواضع مما اتخذه حمي تنقل فيه لعзе .

٣٠ - پمشمر عتد جهیز شده

جِواد الْوَابِدُ وَالرَّهَانُ

المشر : الفرس الطويل القوائم . والعتد : الذى عنده عدة
للجري ، والجهيز : الكثير . والأوابد : الوحش .

٣١ - يشوى لنا الوحد المدل بحضره

الشـد والـاـيـرـاد **بـشـرـيـج بـيـن**

الوحد : الثور أو الحمار الذى ليس مثله شئ من جنسه ، قد
فاق قرناءه أى هذا الفرس من شدة عدوه يلحق أشد الوحش عدوا ،
وقوله : يشوى لنا كانه لما صاده هو شواه . والمدل : المفتخر
المياهى . والحضر : العدو . والشريج : الخليط .

ولما وصف فرسه انتقل الى وصف ناقته ، فقال :

٣٢ - ولقد تلوت الطاعنين بجسرة

أجد مهاجر السقاب جماد

الآجد : المؤقة الخلق . والسباق : جمع سقب ، وهو ولد الناقة
ساعة تلقيه اذا كان ذكرا . والانثى حائل . وقوله : مهاجرة السباب :
أي ليست مما يلقي ، فهو أصلب لها ، والجماد القوية .

٣٣ - عيرانة سد الريبيع خصايتها

ما یستین بها مقیل قراد

العيانة : التي تشبه بالعير في صلابتها وسرعتها . سد الريان
خصائصها : أسمتها بعد المزال فامتلات سمنا ، وأصل الخصائص :
الفرج بين الشيء .

وبعد هذا التفصيل في ما حفل به ماضي الشاعر من مأثر ، يعود
الشاعر إلى حاضره الذي فقد فيه كل شيء بعد أن شاخ وهرم ،
فلا يجد شيئاً مما كان له ، فالفناء طبيعة الأشياء ، ومن شأن الدهر
اتباع الصلاح بالفساد ، والخير بالشر ..

٣٤ - فإذا وذلک لا مهـاـه لـذـکـرـه
والـدـهـرـ يـعـقـبـ صـالـحـاـ بـفـسـادـ
وهـكـذاـ يـنـهـيـ الشـاعـرـ قـصـيـدـتـهـ بـذـكـرـ السـبـبـ وـالـعـلـةـ فـيـماـ صـورـهـ
فـيـ بـدـايـتـهـاـ مـنـ هـمـ مـقـيمـ وـحـزـنـ مـلـازـمـ وـأـرـقـ دـائـمـ .



٧ - يزيد بن خذاق

يزيد بن خذاق شاعر جاهلي قديم من شعراء عبد القيس ،
و (خذاق) فعال من قولهم : خذق الطائر و خرق . اذا رمى بذرقه ،
و كان يزيد هجا النعمان بن المنذر ، فبعث اليهم النعمان كتبية يقال
لها (دوسن) فاستباحتهم ، وكان له اخ شاعر اسمه سويد ، ولزيزيد
شعر في الحماسة والفخر والهجاء .

قصيده في رثاء النفس وردت في المفضليات ، وتنسب للمزرق
العبدى أيضا ، لكن نسبتها إلى يزيد أقوى بدليل أن المفضل يثبتها
صراحة له ويضيف « وتروى للمزرق » (٣١) - كما أن ابن قتيبة نسبها
إليه في الشعر والشعراء وقال : « قال أبو عمرو بن العلاء : أول شعر
قيل في ذم الدنيا قول يزيد بن خذاق .. » (٣٢) .

ودليل آخر من النص نفسه ، وهو أن اسم الشاعر ورد في تلك
القصيدة في البيت الثالث منها . وهذه هي القصيدة :

١ - هل للفتى من بنات الدهر من واق

أم هل له من حمام الموت من راق (٣٣)

٢ - كأننى قد رمانى الدهر عن عرض

بنافذات بلا ريش وافقا (٣٤)

(٣١) شرح المفضليات القسم الثاني ص ١٠٥٥ .

(٣٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٤ - دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣٣) بنات الدهر : أحداه ومصابيه . والحمام : الدنو . والراقي : من
الرقية .

(٣٤) الأفواق : جمع فوق ، وهو مجرى الوتر من السهم .

٣ - اذ غمضوني وما غمضت من وسن

وقال قائلهم أودي ابن خذاق (٣٥)

٤ - ورجلوني وما رجلت من شعث

والبسوني ثيابا غير أخلاق (٣٦)

٥ - ورفعونى وقالوا أيماء رجل

وادرجوني كأني طى مخراق (٣٧)

٦ - وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا

ليسندوا في ضريح الترب أطباقي (٣٨)

٧ - هون عليك ولا تولع باشفاق

فاما ما لنا للواحد باقى

لقد استهل الشاعر قصيده باستفهام يؤدى معنى النفي ، ويؤوحى

بالتعجب من أمر الدهر ومصابيه التي لا يدفعها عن المرء دافع ،
ومن أمر الموت الذي لا تنفع معه رقية .

لقد أيقن الشاعر أن لا وقاية من بنات الدهر ، ولا رقية من

حمام الموت . ويشكوا ما رماه به الدهر من مصاب كالمسام النافذة ،

وهل هناك أعظم من مصيبة الموت اذا يخرج الانسان من دنياه وأهله
وماله وولده - رغم أنفه - ثم يقضى الى ما قدم من عمل ؟ .

(٣٥) الوسن : النوم . أودي : هلك .

(٣٦) الترجيل : تزييف الشعر وتنظيفه وتحسينه ، والشعث ضد ذلك ،
غير أخلاق : أي غير ممزقة .

(٣٧) طى مخراق : هو المئزر الذي يلويه الصبيان ، يضرب بعضهم به
بعضًا .

(٣٨) أرسلوا فتية : يعني ليحرفوا قبره . الأطباقي : المفاصل .

ويستحضر الشاعر ساعة موته ، ويتخيل أهله يتجمعون حوله ؛
يغمضون عينيه ، ويتكلمون بشانه ، وينقل بعضهم الى بعض نبأ
وفاته (أودى ابن خذاق) .

ثم يصلحون من هيئته ، فيرجلون شعره ، ويلبسونه كفنه ، ثم
يرسلون فتية من أفضالهم ليشقولوا له لحده ، وينتظروه عند مثواه
الأخير ، لينزلوه فيه برفق وتؤدة .

ويتخيل الشاعر جنازته ، وقد حمله الرجال على أعناقهم جثة
هامدة لا حراك فيها ، مسلوب القوة والارادة . كأنه المئزر المطوى
الذى يضرب به الصبيان بعضهم بعضا .

والبيت الأخير محاولة للتعزى والتجلد فى مواجهة هذا المصير
استناداً الى حقيقة ثابتة ، اهتدى اليها بعض الجاهلين ، وأكدها
الاسلام ، وهى أن الله سبحانه وتعالى ، هو وحده الباقي الذى لا آخر
لوجوده ، وأن الناس جميعاً يموتون ، ثم الى ربهم يحشرون .



٨ - صخر بن عمرو بن الشريد

هو صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد ، من بني سليم بن منصور ، من قيس عيلان ، كان فارسا شجاعاً كثير الغزو ، أنسجهته حروب الجاهلية وغاراتها ، ثم كان ضحية من ضحاياها .

كان له أخ اسمه معاوية قتله هاشم بن حرملة أحد بني مرة بن غطفان ، فقال صخر : « والله ما بت منذ عقلت الا واترا او موتورا ، او طالباً او مطلوباً ، حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده » (٣٩) .
وغيزا واقريه ، فأخذ بثار أخيه وشفاف نفسه .

وفي يوم ذات الأئل غزا صخر بنى أسد بن خزيمة واكتسح أبلهم ، فأتى الصریخ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأئل - (وهى موضع فى بلاد تيم الله بن ثعلبة) - فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فطعن ربيعة بن ثور الأسدى صخراً فى جنبه ، وظل صخر مريضاً بسبب هذه الطعنة قريراً من الحسول ، حتى ملأه أهله ، فسمع امرأة من جاراته تسأله سطحي امرأته : كيف بعلك ؟ قالت : لا حى فيرجى ولا ميت فينسى ، لقد لقينا منه الأمرين .

وكانت تسأل أمه كيف صخر ؟ فتقول أرجو له العافية ان شاء الله ، فقال فى ذلك (٤٠) :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى

وملت سليمى مضجعى ومكانى

(٣٩) أنظر العقد الفريد : ج ٥ ص ١٦٤ .

(٤٠) المصدر نفسه ص ١٦٦ . والاغانى ج ١٣ ص ١٣١ ، ط . بيروت .
والشعر والشعراء ص ٢١٤ - بيروت .

لأى أمرىء ساوى بأم حليلة
فلا عاش الا فى شقى وهوان
وما كنت أخشى ان اكون جنزاً
عليك ومن يفتر بالحدثان
لعمرى قد نبهت من كان نائماً
وأسمعت من كانت له اذنان
اهم بأمر الحزم لو استطيعه
وقد حيل بين العير والنزوan
فلو ان حيَا فائت الموت فاته
اخو الحرب فوق القارح العدونان
والآبيات صرخة مريبرة ، يطلقها رجل يموت جريحا على فراشه ،
وقد سمع زوجه تتضجر منه ، وتتنمنى أن تستريح بوفاته ، بعد أن
ملت عيادته ، ويذكر الشاعر ماضيه الذى كان فيه ملء السمع
والبصر ويتحسر على ضعفه ومرضه ، ثم يتسلى بالشعر ، معلنا أنه لو
كان أحد يفوت الموت لفاته الفرسان وفرروا منه حينما يبدو لهم
قريبا منهم ، لكن كم من فارس لم ينجه من الموت فرسه ، ولا رمحه
ولا سيفه ! فالموت مصير كل حى .

ولما طال البلاء على صخر ، وقد نبات قطعة من جنبه مثل
اليد فى موضع الطعنـة ، قالوا له : لو قطعتها لرجونا أن تبرا . فقال :
شأنكم . فقطعواها فمات .

وفى الأغانى أنه قبل موته سمع الخنساء أخته تقول : كيف كان
صبره ؟ فقال :

(م ٧ - الشعر الجاهلى)

أجارتنا ان الخطوب تنوب على الناس كل المخطئين تصيب
فان تسالينى هل صبرت فاننى صبور على ريب الزمان صليب
كائى وشد ادانو الى شفارهم من الصبر دامى الصفحتين ركوب
اجارتنا لست الغداة بظاعن ولكن مقيم ما اقام عسيب
(وعسيب : جبل بأرض بنى سليم الى جنب المدينة ، وقبر
صخر هناك) (٤١) .

وصخر هو أخو الخنساء الذى اكثرت القول فى رثائه ، ولها فيه :
وقائلة والنعش قد فات خطوها
لتدركه يا لهف نفسى على صخر
الا ثكلت أم الذين غبدوا به
الى القبر ماذا يحملون الى القبر



٩ - مخارق بن شهاب

هو مخارق بن شهاب ، من بني مازن ، عاش زمن النعمان
ابن المنذر ، وكان سيداً كريماً (٤٢) .

قال مخارق يذكر قول الناس عنه اذا مات :

كم شامت بي ان هلكت وسائل
لا يبعدن مخارق بن شهاب (٤٣)

المشتري حسن الثناء بمساله
والمسالىء الجففات للأصحاب

مأوى الأرامل والضرير اذا اشتكى
وثمانى كل معيل قرضاب (٤٤)
واخى اخاء قد غدا متقلدا

سيفا وراحلى له وثيابى

والشاعر في هذه الأبيات يعزز بذكرة الطيب وحسن سيرته بعد
موته ، فالناس سيذكرون له أنه كان ينفق ماله في المكرمات ، ويملا
جففات الطعام لأصحابه ، وأنه كان غياشاً للفقراء ، سندًا للضعفاء ،
مأوى الأرامل ، شهما جواداً ، لا يبخل على ضيفه بشيء .



(٤٢) ترجمته ، والأبيات في شعر بني تميم في العصر الجاهلي ، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحميد محمود المعيني ص ٣٩٧ . من منشورات نادي القصيم الأدبي ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٤٣) لا يبعدن : دعاء بعد الميت والموت .

(٤٤) الضرير : الفقير . القرضاب : الذي لا شيء عنده . والثمانى : الغياث والعماد .

١٠ - عباد بن شداد

هو عباد بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن
مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة (٤٥) .

كان من المعمرين في الجاهلية ذكر السجستانى أنه عاش مائة
وثمانين عاماً .

ومن شعره الذى قاله فى شيخوخته :

يا بؤس للشيخ عباد بن شداد
أضحي رهينة بيت بين أعداء

وتهزا العرس منى ان رأت جسدي
أحذب لم تبق منه غير أجلاد

فان ترينى ضعيفا قاصرا عنقى
فقد أكعك عن عدوة العادى

وقد أفىء باثواب الرئيس وقد
أغدو على سلهب للوحش مسيا

وهي أبيات تفيض بالتحسر على الشباب والقصوة ، بعد أن صار
الرجل حبيس خيمته لا يخرج لحرب ولا لصيد كما كان يفعل .

وها هي ذى عرسه تهزا منه ، من ضعف قوته ، ومن هيبة
جسمه الذى ضعف وانحنى صلبه ، ولم يبق منه غير الجلد المتجمع
على العظام اليابسة . لكن الشاعر يلتمس فى ماضيه زادا يهون عليه
ما صار اليه حاله ، فيذكر عرسه بأنه طالما دافع عن حماه وحمى
قومه ، وصد الأعداء وأبعدهم ، وكم حارب وانتصر وقتل الرؤساء
وأخذ سلبهم ، وقد كان يركب جوادا سريا يصيده به الوحوش .

وهل يكفي كل ذليل لفيني الشفاعة؟! وهل يشفع له ماضيه
عند عرسه؟

الذى يلتجأ إليه فى حالات الشدة، ويفسره بالذلة والذلة، وإن لم ينتبه إلى ذلك، فهو أكثى من أن يهونه تفكير الشياطين، لكنه هذار

ليهونوا على أنفسهم مرارة العجز والازدراء والإهمال .

وقد يضاعف تذكر الشيل وملحiam الخالية من اليمهان بتللام
الكيد عندها يوازن الشاعر بين ما فيه وحاضره كما نجده في قول الشاعر
شبير بن عطى العبيدي (٤٦) : **نَسِيَتْنَا فَلَمْ يَأْتِنَا**
وَكَيْفَ حَزَنْنَا إِلَّا أَرْدَمْطَيْتَنِي **سَلَانْسَنْهُ** **بَعْدَ ١٢** **الْتِبْيَانِ**
وَلَا اغْتَدُو مِنْ الْقَسْوَمِ فِي وَفَدِ

٢ - وان امرعت قريان نجد ونورت
 من البقل ثم انتظر عيني في تجده
 ٣ - وان اشأ الوغاد ما كان شئنهم
 ٤ - وقد كنت اعطي السيف في الروع حقه

حياء اذا جردت سيفي من الغمد

(٤٦) انظر شعراء بنى قشير في الحاللة والاسلام: القسم الثاني هي ر ١٤٢ تأليف الدكتور عبد العزيز محمد الفيصل - ط. عيسى الحلبـ

وقوله : أمرعت : أعشبت . القريان : جمع قرى وهو مجرى الماء
في الروض . والنور : الزهر . ونورت : كثرة زهرها . البقل من
النباتات : ملائين يتشجر دنق ولا جل : المهدى بن البازيل المضييف ودعا
المحمد : حفن السيف ،

١١ — عبد القيس بن خفاف

هو الشاعر عبد القيس بن خفاف البرجمي ، وكنيته أبو حبيل .
كان شريفاً شجاعاً ، عاش زمن التعمان بن المنذر ، وهو من الشعراء
الحكماء (٤٧) .

يبدو من شعره أنه كان حريصاً على مكارم الأخلاق ، وتعد
قصيدته في وصية ابنه جبيل كنزاً للنصائح القيمة والمثل العليا .
ويبدو أن تذكره الموت كان أحد الدوافع التي أظهرت في شعره
هذا الاتجاه ، ففي قصيده التي ضمنها وصيحة لابنه جبيل جاء
البيتان الآخيران منها كأنهما المبرر لللتزام بهذه الأخلاق التي يريد
الشاعر من ابنه الحرص عليها ، وهما قوله :

ومؤمل قد قصرت إكفانه ومحاذير إكفانه لم تعزل
ومشيد داراً لينزل داره نزل القبور وداره لم ينزل
بل إن مطلع هذه القصيدة يدل على أن الاحساس بالموت كان
أحد الدوافع في قولها .

لقد بدأ الشاعر القصيدة بنداء الديار الدارسة ، دار عبلة التي
ما زال يذكرها على الرغم من طول العهد وتقادم الزمن ، لكن أوصاف
الدار تنبئ بالخراب وانقطاع العمران :

يا دار عبلة من مشارق مأسـل
درـس الشـؤون وعهـدـها لم يـنجـل

(٤٧) راجع شعر بنى تميم ص ٣٤٧ ، شرح المفضليات - القسم الثالث
ص ١٢٨٩ .

فاستبدلت عفر الظباء كأنما
أبعارها في الصيف حب الفلفل
تمشى النعام به خلاء حوله مشي النصارى حول بيت الهيكل
فدان عبلة غيرها البلى ، وفارقها أهلها ، وأمست خلاء من البشر
حتى الحيوان الذي سكنها تبدو صورته فارغة من أوصاف الحياة
النشطة اللاهية التي يمكن أن نتصورها في قطعان الظباء واللو奸 .

فالظباء التي سكنتها (عفر الظباء) نوع ضعيف العدو ، لونه
لون التزاب ، وضورة النعام التي تمشى بها توحى بالخشوع والفتور
والضعف ، وتشبيه مشيها بمشي النصارى حول بيت الهيكل يدل على
أن الرجل كان مشغولا بالتفكير في أمر الآخرة . آخرته التي
أوشكت أن تحيى ، ولذا جاءت وصيته لابنه بعد هذه المقدمات ، وفي
 بدايتها أخبار صريح بذلك في قوله :

أجبيـلـ أـنـ أـبـاكـ كـارـبـ يـوـمـهـ

فـاـذـ دـعـيـتـ إـلـىـ الـعـظـائـمـ قـافـعـلـ

أـوـصـيـكـ أـيـصـاءـ اـمـرـىـءـ لـكـ نـاصـحـ

طـبـنـ بـرـبـ الـدـهـرـ غـيرـ مـغـفـلـ

ولعبد القيس قصيدة يشرح فيها منهجه في الحياة أيام فترة
من عمره وتبدو صفات العفة والكرم والشجاعة والنبل ملامح بارزة
لهذا المنهج الذي أحبه الشاعر والتزمه وخالف به ومن أجله من لامه
عليه ، وكان ذكره الموت كذلك هو المبرر عنده للالتزام بهذا المنهج ،
يقول عبد القيس بن خفاف (٤٨) :

صـحـوتـ وـزـايـلـنـىـ باـطـلـىـ لـعـمـرـ أـبـيـكـ زـيـلاـ طـوـيلـاـ (٤٩)

(٤٨) انظر شرح المفضليات : القسم الثالث من ١٢٩٤ :

(٤٩) زايل : فاريق .

ولا للحوم صديقى اكولا (٥٠)	وأصبحت لا نزقا باللحاء
بذحل اذا ما طلت الذحولا (٥١)	ولا سابق كاشه نازح
عرضما بريئا وعضا ثقيلا (٥٢)	فأصبحت أعددت للنائبات
ورمحا طويل القناة عسولا (٥٣)	ووقع لسان كحد السنان
تسمع للسيف فيها مليلا	وسابقة من جياد الدروع
يجر المدجج منها فضولا (٥٤)	كماء الغدير زفته الدبور
او الى الكريم وأجفو البخيلاء	فهذا عتادي وانى امرؤ
والليل ملق عليها سدوا	ونار دعوت بها الطارقين
اذا الريح هبت بليل بليلا (٥٥)	الى ملق بضيوف الشتاء
اذا ما تلظت تراه جهولا	حليم ولكنه في الحروب

ذلك هو منهجه الذى ارتضاه لنفسه ، أما دافعه ومبرره فيبدو ان
فى قوله :

ولوعاش فى الدهر عمرا طويلا (٥٦)	رأى انه جزر للمنـون
وعاصى - على ما أحب - العذولا	قطاوع رائده فى الهـوى
ويقين عبد القيس بن خفاف بالموت وأنه أمر لا مفر منه ولا مهرب	
لأحد يتجلى أيضا فى اخباره زوجه بأنه هالك لا محالة ، وأنها	

(٥٠) النزق : الطائش . اللحاء : المخاصة .

(٥١) الكاشه : المعرض عداوة . الذحل : الثار والعداوة .

(٥٢) العضب : السيف القاطع .

(٥٣) الرمح العسول : اللين .

(٥٤) المدجج : الكامل السلاح .

(٥٥) الملق : الود واللطف .

(٥٦) جزر المنـون : حان أوان موته .

ستبين منه وتن ويم مثل كل النساء اللائي يفقدن أزواجهن ، وفي نهيه
أياها عن الجزع والافرات فى الحزن ، اذ يقول :
افاطم انى هالك فتبينى ولا تجزعى كل النساء يئيم
ولا انسان ان وجهك شأنه
خموش وان كان الحميم حميم



١٢ - دويد بن زيد بن نهد

ذكره ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ، فقال (٥٧) :
ومما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد ، قال
حين حضره الموت :

اللهم يبني لدويد بيت
أو كان للدهر بل ابليته
يا رب نهب واحدا كفيته
ورب غيل حسن لوتيه
ومنعم مخضب ثنياته
وقال أيضا :

القى على الدهر رجلا ويدا
والدهر ما أصلح يوما أفسدا
يصلحه اليوم ويفسده غدا

يشكو ما فعل به الدهر ، وفي نهاية حياته ينظر إلى قبره
الذى هو منزله الأخير وب بيته ، ويصرح بعجزه عن مقاومة البلى
وهو الشجاع الذى طالما هزم الأقران ، ولو أن الدهر كان يبلى
لأبلاه ، ولو أنه كان رجالا لصرعه ، ولكن هيئات .

ويتذكر الشاعر أيام لهوه ومنتعنه وشبابه وفتوته ، أيام كان
ينهب الغنائم الكثيرة ، ويتجاوز الحراس ليستمتع بالنساء الجميلات .
فإذا بالدهر يجدد كل قوة ويذهب كل نعمة ، ويفسد عليه أمره .



١٣ - أفنون التغلبى

قال المفضل (٥٨) :

«بلغنا أن رجلا من بنى تغلب يقال له أفنون يلقب به ، واسمه صريم بن عشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب لقى كاهنا في الجاهلية ، فسأله عن موته ، فقال : أما إنك تموت بمكان يقال له الاهة ، فمكث ما شاء الله ، ثم انه سافر في ركب مع قومه إلى الشام ، فاتوها ، ثم انصرفوا فضلوا الطريق ، فاستقبلهم رجل فسألوه عن طريقهم ، فقال : خذوا كذا وكذا ، فإذا عنت لكم الأهة - وهي قارة بالسماوة - وضح لكم الطريق . فلما سمع أفنون ذكر الموضع تطير ، فلما أتواها نزل أصحابه ، وأبى أن ينزل معهم ، وبينما ناقته ترتعي عرجاً لدغتها أفعى في مشفرها فاحتكت بساقه ، والحيثية متعلقة بمشفرها فلدغته في ساقه ، فقال لأخ معه : أحفر لي قبراً فاني ميت .

وقيل انه كان راكباً حماراً ، فلما أبى النزول مع أصحابه وطال وقوفه رض الحمار فلدغته حية ، وقالوا نهش حماره ، وسقط ، فقال لأصحابه : انى ميت ، فقالوا : ما عليك بأس . قال : فلم ربض العير اذا ، فأرسلها مثلا ، ثم قال يرثى نفسه :

١ - الا لست في شيء فروحا معاويها

ولا المشفات اذ ثعن الحوازيها

(٥٨) انظر شرح المفضليات - القسم الثاني ص ٩٣٨ ، وراجع أيضاً الشعر والشعراء ص ٢٦٨ .

قوله : ألا لست فى شيء : كلام يائس مما يرجى أو يحذر . والشيء
اسم لكل ما يجوز أن يعلم أو يخبر عنه ، فكان المراد : ليس اليك
من الأمر شيء لما استسلم بما استشعره من قول الحازى (وهو الكاهن)
وحكمه ، خاطبه بهذا منتظرا للكافنة .

ولا المشفات اذ يتبعن الحوازيا ، المراد : أنى لا أقدر ان أدفع
عنى شيئاً كتب على ، وكذا النساء المشفات اذ تبعن الكواهن يسألنهم
لا يغنين عن أشفقن عليه شيئاً .

٢ - فلا خير فيما يكذب المرء نفسه

وتقدوا له للشيء يا ليت ذا ليـا

المعنى : أن حديث النفس - اذا حقـت الحقائق - لا يغنى شيئاً
صدقـاً كان أو كذباً .

٣ - فطاً معرضـاً انـ الـحتـوفـ كـثـيـرـةـ

وانـكـ لاـ تـبـقـىـ بـمـاـ لـكـ باـقـيـاـ

يخاطـبـ صـاحـبـهـ أوـ نـفـسـهـ ،ـ يـقـولـ :ـ أـقـدـمـ عـلـىـ مـاـ يـعـرـضـ لـكـ
وارـكـ ماـ يـعـطـيـكـ ظـهـرـهـ ،ـ عـالـاـ أـنـ أـنـوـاعـ الـمـكـارـهـ كـثـيـرـةـ ،ـ وـقـوـلـهـ :ـ
انـكـ لاـ تـبـقـىـ بـمـاـ لـكـ باـقـيـاـ :ـ يـرـيدـ أـنـ الـمـالـ لـاـ يـحـرـسـكـ وـلـاـ يـدـفعـ مـكـروـهـاـ
عـنـكـ ،ـ وـهـوـ بـعـرـضـ الزـوـالـ وـاـنـ اـجـتـهـدتـ فـيـ تـبـقـيـتـهـ .ـ

٤ - لـعـمـرـكـ مـاـ يـدـرـىـ اـمـرـؤـ كـيفـ يـتـقـىـ

اـذـاـ هـوـ لـمـ يـجـعـلـ لـهـ اللهـ وـاقـيـاـ

٥ - كـفـيـ حـزـنـاـ أـنـ يـرـحلـ الرـكـبـ غـدوـةـ

وـأـصـبـحـ فـيـ أـعـلـىـ الـاهـمـةـ ثـاوـيـاـ

والشاعر في هذه الأبيات يعرب عما أحسه من مرارة الموت
الذى انتظره عندما أخبر بأنه بالوضع الذى أخبره به الكاهن .
ولو كان الموت بدار أهله لخفت عليه مشقة الأمر ، لكن الركب
سيتركه ويرحل ويظل هو ثاويا فى موضع موته وحده .



٤١ - المرقش الأكبر

هو عمرو بن سعد ، ويقال : عوف بن سعد ، بن مالك ، بن ضبيعة ابن قيس ، بن ثعلبة ، وينتهى نسبه إلى ربيعة بن نزار .
وهو شاعر جاهلي ، عاصر المهلل ، وشهد حرب البسوس (٥٩) .
وسمى المرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم (٦٠)
والمرقش أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته أسماء
بنت عوف بن مالك ، وقد كانت ابنة عمه التي ربى معها صغيراً ،
خطبها من أبيها ، فقال لها : لن أزوجك إياها حتى تكون رئيساً
وتاتي الملوك ، فخرج مرقش ، فأتى ملكاً من ملوك اليمن ممتداً
له ، فأنزله وأكرمه ووصله ، وفي فترة إقامته باليمن أصابت عمته
سنة فاجدب ، وخطب اليه رجل من مراد أسماء ، فزوجه منها . فلما
عاد المرقش أشفق عليه أخوته وبنو عمته من أن يخبروه بزواج ابنته
عمته من المرادي ، وأخبروه أنها ماتت ، وذهبوا به إلى قبر قد
أخذوا قبل ذلك ك بشاكلا لحمه ووضعوا عظامه في ذلك القبر .

وجعل المرقش يزور هذا القبر معتقداً أن محبوته ثاوية فيه ،
وبينما هو نائم عنده ذات يوم اذ اختصم صبيان من بنى أخيه في
كعب معهما فقال أحدها لصاحبه : هذا كعب الكبش الذي ذبح ودفن ،
وقيل للمرقش : انه قبر أسماء ، دفعه إلى أبي .

(٥٩) انظر شرح المفضيات : القسم الثاني ص ٨٠٩ .

(٦٠) الشعر والشعراء : ص ١١٩ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَرْقُشُ ذَلِكَ مِنْ الصَّبَى فَعَدَ مُذْعُورًا، وَمَا زَالَ بِالصَّبَى
حَتَّى أَعْلَمَهُ الْخَبَرُ، فَعَمِدَ إِلَى يَعِيرَ لَهُ وَجْهِي مَعْهُ مَوْلَةٌ وَزَوْجًا لَهَا
مِنْ قَبِيلَةِ غَفِيلَةٍ كَانَ أَجِيرًا يَرْعِي لِلْمَرْقُشَ، وَذَهَبَ يَطْلَبُ الْمَرْادِيَ زَوْجَ
أَسْمَاءَ وَيَبْحَثُ عَنْهُ، فَفَرَضَ مَرْضًا شَدِيدًا، فَتَرَكَهُ الْغَفِيلِيَّ فِي غَارٍ
وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْمَرْقُشَ مَاتَ، فَاخْذَوْهُ وَضَرَبُوهُ حَتَّى
اقْرَرْ فَقْتَلَوْهُ، وَيَقَالُ: أَنَّ أَسْمَاءَ وَقَتَتْ عَلَى أُمْرَهُ فَبَعْثَتْ إِلَيْهِ، فَخَمَلَ
إِلَيْهَا، وَكَانَتِ السَّبَاعُ قَدْ أَكْلَتْ أَنْفَهُ وَبَعْضَ لَحْمِهِ، فَقَالَ:

يا صاحب تلومات لا تعجل
أن الدليل، هنالك لا تعذلا (٦٦)

فَلَعْلَ بَطَا كَمَا يَفْرُطُ سِنَا

أو يسبق الاستراغ شيئاً مقبلاً (٦٢)

پا را کبا اما عرضت فبلغا

أنس بن سعد ان لقيت وحرملا (٦٣)

دَرْكَمَا وَدَرْ أَبِي كَمَا إِنْ أَفْلَتْ الْغَفْلَى حَتَّىٰ يُقْتَلَا (٦٤)

من مبلغ الأقوام أن مرقشا

أمسى على الأصحاب عبيداً مثقلًا

(٦١) تلوما : أى تلبيثا .

(٦٢) يفترط : يقدم ، مأخوذ من الفارط ، وهو المتقدم قبل الماشية ، يصلح الدلاء الارشية . ومعناه المراد هنا : يفوت وينحي ، فيقول : تريثا لعل التريث وعدم العجلة أن يفوت عنكما مكروها ، ولعل سيبا مقبلا يكون بعد عجلتكما فانتظاركما أوفق .

(٦٣) أنس وحرملة : أخواه .

(٦٤). تحضيض وحث على قتل الغفل .

ذهب السبع بانفه فتركنه
أعشى عليه بالجبل وجيلا (٦٥)
وكأنما ترد السبع بشلوه
اذ غاب جمع بنى ضبيعة منهلا (٦٦)

فهذا شاعر قتله العشق ، والآبيات تصوّر نفسه الرقيقة المذبحة ،
في محنّة شديدة ، عانى الشاعر فيها فقد المحبوبة ، وتخلى رفاق
الطريق ، والغيبة عن أهله وداره ، والمرض الشديد الذي جعله
على رفاق الطريق عبئاً مثقالاً ، مما دعاهم إلى تركه وحيداً في
غار والانصراف عنه .

وتجتمع المصائب على الشاعر من كل جهة ، وتبلغ مأساته ذروتها بهذه السباع التي اجتمعت عليه ، تنهش لحمه وتعيث به ، وهو لا يملك قوة لدفعها ومنع نفسه منها .

وتتضمن الأبيات رسالة إلى قومه بنى ضبيعة ، والى أخويه خاصة الا يترك الغلى الذى ترك الشاعر وحيدا فى الغار ، فريسة للمرض وللسبع ، ويحثهم على قتله ، لكنه يأمر صاحبيه الذين وجه اليهما نداءه فى البيت الأول أن يتربشا ، ويبدو أنه كان يريد من أخويه الا يتعجلوا بقتل الغلى قبل أن يعرفا منه مكان المرقش وخبره ، ليرحلوا إليه ويدركوه .

• 10 •

(٦٥) الأعشى : هو من الضباء الذكر العظيم ، والأعشى : لون الى السوداء ، وهو الكثير الشعر أيضا . والجيال : الضبع ، ونصب على أنه مفعول معه ، يزيد : اجتمع عليه أعشى مع جيال فاكلاه .

(٦٦) شلوه : بقايا لحمة وعظامه . والمعنى : كأنما ترد المباع منها
بورودها شلوه . راجع شرح المفضليات : القسم الثاني من ٨٠٩ .

الفصل الثاني

رثاء الآخرين

يرتبط شعر الرثاء بالموت ارتباطاً وثيقاً ، اذ هو نتيجة للموت ومسبب عنه ، وقد ثبتت تقاليد هذا الفن وتأصلت عند شعراً الجاهليّة ، وتمثل هذه التقاليد في التعبير عن مشاعر الحزن والأسى ، والاحساس بعظم المصيبة في موت المرثي ، ثم في تعداد مآثره وفضائله التي كان يتصرف بها في حياته ، ثم محاولة التعزى عن فقده بتذكر مصائر من كانوا قبله ، والالتفات إلى أن الموت مصير جميع البشر .

ورثاء الأفراد كثير جداً في الشعر الجاهليّ ، وقد كانت الحروب رافداً يمد فن الرثاء ويثيريه ، ويجدد طاقة الشعراء ، فما من حروب أو غارة إلا ويسقط فيها العديد من القتلى ، فتنشد فيهم قصائد الرثاء على السنة أخوتهم أو أصدقائهم أو بنى قبائلهم من الشعراء .

وفي هذا الفصل حاولت جهدي أن أنتقى من الشعر الكثير الذي قيل في الرثاء ما يتفق ومنهج هذه الدراسة وغرضها ، فأغفلت أكثر شعر الرثاء الذي غطت فيه شخصية المرثي على احساس الشاعر بالموت بوصفه حدثاً يزلزل الوجود ، ويلفت المرء إلى المصير المحتوم الذي ينتظره سائر الناس ، كما أغفلت القصائد التي استغرقتها التعبير عن عاطفة الشاعر نحو المرثي ، بتصوير حزنه عليه والمه لفقده دون تركيز على فكرة الموت أو رؤية الشاعر له واحساسه به .
فمثلاً قصيدة أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة من الرثاء

الذى ظهر فيه شخصية المرثى ظهورا واضحأ لكن فكرة الموت أو رأى الشاعر فيه أو احساسه به لا يظهر . يقول أوس بن حجر (١) :

أيتها النفس أجملى جرعا
ان الذى تحذرین قد وقعا
والحزم والقوى جمعا
كأن قد رأى وقد سمعا
يمنع بضعف ولم يمت طبعا
ان الذى جمع السماحة والنجد
الاىلى الذى يظن بك الظن
والمخلف المغيرا لـم
وتحمى القصيدة على هذا النحو ، تعدد فضائل المرثى ومآثره
التي كان يتصرف بها في حياته من سماحة ونجد وشجاعة وكرم وحزم
وذكاء .

ومن القصائد التي استغرقها التعبير عن عاطفة الحزن وتصوير
ألم فقد دون أن ترکز على حقيقة الموت بالتأمل والاحساس ، قصيدة
جليلة بنت مرة في رثاء زوجها كليب الذي قتله جساس أخوها ،
فلا شك أن عواطف الحزن والأسى والحيارة واليأس تملؤها وهي
تصوير لمساة امرأة ترى بيتها يتهدم بقتل زوجها ، وتلمح في الأفق
نذر الشر التي تنبئ عن وشك قيام حرب ضروس بين قبيلة زوجها
وقبيلة أخيها التي إليها تنتمي ، وهي في حزنهما على زوجها القتيل
وضيقها بفعلة أخيها ، لا تستطيع قتل عاطفة الأخوة عندها ،
فهي مشفقة على أخيها المطلوب للثار .

وفي خضم هذه العواطف الملتهبة غابت فكرة الموت عن القصيدة

(١) الرثاء في الشعر العربي ص ٨٨ ، د. محمود حسن أبو ناجي ، ط ٢
دار الحياة - بيروت - ١٤٠٢ هـ

ولم يكن بوسع الشاعرة ان تتأمل حقيقته او تعبر عن رأيها فيه ونظرتها
اليه ، تقول جليلة بنت مرية (٢) :

يا ابنة الاقوام ان لم ت فلا
تعجل باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي يوجب اللوم فلومي واعذلي
ان تكون اخت امرئ ليمنت على
شفق منها عليه فافعل
جل عندي فعل جساس فيها
حضرتى عما انجلت او تنجل
فعل جساس على وجدى به
قطاع ظهرى ومدن اجلى
لو بعين فقلت عينى سوى
اختها فانفاقات لم احفل
تحمل العين قذى العين كما
تحمل الالم اذى ما تفتلى
يا لطيلا قود الدهر به سقف بيتي جميرا من عل
هدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الاول
ورمانى في قتلها من كتب
خصنى الدهر بربعه معرض
من ورائي ولظى مستقبل

ليس من يُنْكِي لِيَوْمَيْنِ كُمْنَ
يشتفي المدرك بالشار وفي
ليته كان دمى فاحتلبوا
اننى قاتلة مقتولة ولعل الله ان يرتاح لى

فهذا النوع من الرثاء لا يعنينا في هذه الدراسة لأن المقصود
منها معالجة فكرة الموت ورؤية الجاهلين له واحساسهم به . ومن
الرثاء الذي يظهر فيه احساس الشاعر بالموت ، أو تبدو صورته
ومشهده على نحو ينم عن احساس الشاعر به قول امرئ القيس
فى رثاء بعض أجداده (٣) :

ملوك من بني حجر بن عمرو
يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيروا
ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل
نظل الطير عاكفة عليهم
وتنتزع الحواجب والعيونا

ففى هذه الأبيات تصوير للموت فى عدة مشاهد مروعة هى
فى حقيقتها شرائح من نفس الشاعر تجلى احساسه بهذا الحدث ،
وهذه المشاهد تكون فى مجموعها صورة الموت الذى حل بأجداده ،
فهم يساقون عشية الى القتل ، ويقتلون وتمرغ جماجمهم فى الرمال
ولا تغسل ، ويتركون نهبا للطير الجارح ينزع حواجبهم وعيونهم
ويعبث بأجسادهم التى لم توار التراب .

وهذه المشاهد مروعة بلا شك ، ترسم الموت في صورة رهيبة وهو موت بطريقة تبعث الفزع والأسى في النفس ، وقد استقرت هذه الصورة في نفس الشاعر ، فظهر احساسه بها في تعبيره عنها ووصفه لها ، ولقد أراد الشاعر أن يجعل هذه المشاهد حاضرة في نفس السامع كما كانت حاضرة عنده ، فاستخدم التعبير بالفعل المضارع (يساقون - يقتلون - تغسل - تظل - تتنزع) .

ومن المراثي التي يظهر فيها احساس الشاعر بالموت كذلك مرثية كعب بن سعد الغنوبي أخيه ، وكان الشاعر قد خرج بأخيه المغوار إلى البادية لمرض كان شائعاً في المدينة خاف على أخيه منه ، وقد قيل له إن الوباء كان في المدينة ، والبادية بريئة منه ، فخرج إليها طالباً نجاة أخيه من الموت ، لكن الموت أدرك أخيه في البادية ، فقال كعب (٤) :

فخبرتماني إنما الموت بالقوى
كيف وهذى روضة وكثيب
وماء سماء كان غير محبة
بداوية تجري عليه جنوب (٥)
ومنزلة في دار صدق وغططة
وما افتال في حكم على طبيب (٦)

(٤) راجع طبقات حول الشعراء لابن سالم : تحقيق محمود شاكر ، ج ١ ص ٢١٢ .

(٥) أرض محبة : ذات حمى . والداوية : الفلاة المتبااعدة التي تدوى فيها الرياح .

(٦) افتال : تحكم . وهذا منزل في أرض بريئة من العيب ، لا طبيب بها يتحكم ويدعى كيف اذن غاله الموت ؟

فلو كانت الموتى تباع اشتريته
بما لم تكن عنده النفوس تطيب
عيينى وكلتا يدى وقيل لى
هو الغانم الجذلان حين يؤوب
وداع دعا يامن يجيب الى الندى
فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقللت ادع اخرى وارفع الصوت دعوة
لعل ابا المغوار منك قرير
يجبك كما قد كان يفعل انه
مجيب لأبواب العلاء طلوب

وهذه القصيدة جديرة - بحق - بما نالته من استحسان النقاد
وتقديرهم ، فقد سئل الأصمى عن فحول الشعراء ، وكان كعب بن سعد
الغنوى ضمن الشعراء الذين سئل عنهم : هل يعد من الفحول ؟ فأجاب
الأصمى بقوله : « ليس من الفحول الا في المرثية ، فإنه ليس مثلها
في الدنيا » (٧) يعني تلك القصيدة . وبها عده ابن سلام من طبقة شعراء
المراثى . كما رواها أصحاب المختارات ، الأصمى في الأصميات ،
والقرشى في الجمهرة والقالى في الامالى .

ووصفها محمود شاكر بأنها من بارع كلام العرب ونبيله (٨) .

(٧) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب - د / احسان عباس ص ٥٢ -
ط. الخامسة - دار الثقافة - بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

(٨) طبقات فحول الشعراء ص ٢١٢ هامشى (٣) .

وفي الأبيات الأولى تعجب كعب من أمر الموت الذى تبع أخاه
وأدركه بعد أن خرج من قرية الوباء التى أخبر أن الموت كامن بها .
فكيف أدركه الموت فى هذه الباذية النظيفة البعيدة عن الحمى والبريئة
من الوباء والمرض ؟ !

فخبرتمنى إنما الموت بالقرى **فكيف وهذى روضة وكثيب**
والتعبير يوحى بالتحسر والحيرة والعجب من شأن الموت الذى
لم تنفع معه الحيلة ، ولم ينج منه الخروج من القرية إلى الباذية .
ووقع المصيبة على الشاعر شديد ، لكن ادراكه لحقيقة الموت ،
وأن الذى تختاره المنية لا يفتدى ولا يعود حاضر فى نفسه ، ولا يملك
الشاعر فى مواجهة ذلك الا تمنى المستحيل باستخدام « لو » التى يمتنع
جوابها لامتناع الشرط الذى علق عليه :

فلو كانت الموتى تباع اشتريته **بما لم تكن عنه النفوس تطيب**
بعينى أو كلتا يدى وقيل لي : **هو الغانم الجذلان حين يؤوب**
ثم يلتفت الشاعر إلى ما تركه أخوه من فراغ ، فمن الذى سيجيب
طالبي الغوث والنجدة والعطاء بعده ؟ .

وبسبب شدة الأمر على الشاعر وشدة تعلقه بأخيه بيدو وكأنه
يرفض التصديق بموته ، فيجنب خياله ليتصور المستحيل ممكنا ، فيدعى
أن أخاه سيجيب من يدعوه للبذل والعطاء جريا على عادته فى حياته :
وداع دعا يامن يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع اخرى وارفع الصوت دعوا
لعل ابا المغوار منك قريب
يچيك كما قد كان يفعل انه مجيب لابواب العلاء طلوب

وهذا التردد بين الاعتراف بغياب المرثى ، والأمل الشاحب في
إمكان ارجاعه أو استجابته لنداء دعاته ، وهذا التأرجح بين الحقيقة
الواقعة والأمل المستحيل ، إنما هو نتيجة لاحساس الشاعر بفداحة
مصابه ، وذلك مرتبط بما فوجيء به الشاعر من اختلاف النتيجة مع
المقدمة ، أعني خروجه بأخيه إلى البايدية لينجو من الموت ، وادراك
الموت أيام على الرغم من ذلك ، وهو ما تعجب الشاعر منه في أول
القصيدة .

ومن هذا الشعر كذلك قصيدة سعدى بنت الشمردل في رثاء أخيها
أسعد وفيها تقول : (٩)

أمن الحوادث والمنون أروع وأبيت ليلى كله لا اهجع
أليس فيمن مضى لى عبرة هلكوا وقد أيقنت ان لن يرجعوا
والبيتان تصوير لما تعانيه الشاعرة من فزع وسهد ، ومحاولتها
التصبر والتعزى بمن مضى من الناس إلى طريق الموت .

ثم تثنى الشاعرة على أخيها بالكرم والنجدة على عادة الشعراء
في هذا الفن .

ثم تعرب الشاعرة عن أمنية مستحيلة راودتها ، وهي افتداها
أخاهما من الموت ، ولكن أنى يكون ذلك وقد انطلق سهم المنيه اليه
فصرعه ، وقد رأته بعينيها مجندلا في دمائه ، وتركته موجعة حزينة
تحمل خبر مقتل أخيها وما أشنعه من خبر :

فوددت لو قبلت بأسعد فدية مما يضن به المصاب الموجع
غادرته يوم الرصاف مجندلا خبر لعمرك يوم ذلك أشنع

ومن هذا الرثاء أيضا قصيدة المهلل في رثاء أخيه كليب وفيها
يقول : (١٠)

اما ح قذاة عيني الادكار
هدوعا فالدموع لها انحدار
وصار الليل مشتملا علينا
كان الليل ليس له نهار
وابكي والنجوم مطلعات
كأن لم يحوها عن النجمار
دعوتك يا كليب فلم تجبني
وكيف يجيئني البلد القفار
لقد فجعت بفارسها نزار
اجبني يا كليب خلاك ذم
ودعوة الشاعر للميت وطلبه منه أن يجيئه محاولة لاستبعاد ما
وقع - وكأنه لا يصدق موت أخيه - ثم لا يلبث الشاعر أن يصف حزنه
وجزعه على فقد أخيه الذي تأكد له موته ، وأنه لن يجيئه ، وبعد أن
يعدد مآثره يحاول أن يتغزى وأن يلتمس الصبر فيما عرفه من أمر الحياة
وأمر الموت .

أرى طول الحياة وقد تولى كما قد يسلب الشيء المعارض
ثم تلقاناه في قصيدة المهلل صورة القبر الذي غيب فيه أخوه
فقد سال الشاعر عن مكانه وقصده وسار إليه ، وعنده ندب أخيه :

سألت الحى أين دفنتمه
فقالوا لى بسفح الحى دار
فسرت اليه من بلدى حيثا
وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتي عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفحار
ومن المراثى التي يظهر فيها احساس الشاعر بالموت كذلك مرثية
سلمة بن يزيد في أخيه ، وفيها يقول : (١١)

(١٠) الرثاء في الشعر العربي ص ٤٨

(١١) الرثاء في الشعر العربي ص ٧٣

أقول لنفسي في الخلاء الومها لك الويل ما هذا التجلد والصبر
الا تفهمين الخبر ان لست لاقيا

أخرى اذا ما اتى من دون اكفانه القبر

يظل على الاحساء من بينه الجمر
فكيف لبين كان موعده الحشر
على اثره وان نفس العمر
حميداً وأودي بعده المجد والفاخر

وكنت اذا يأتى به بين ليلاً
فهذا البين قد علمنا ايابه
وهون وجدى انى سوف اغتنى
فلا يبعدنک الله اما تركتنا

وقد تضمنت هذه الأبيات معانى شريفة ، فالشاعر يلوم نفسه
ويذكر عليها التجلد ، ويخاطب نفسه مذكراً ايابها بفداحة مصابه فى أخيه
وقد كان لا يطيق الصبر على فراقه ليلة واحدة ، فكيف يطيق فراقه ليس
بعده اياب ، وليس منه رجعة ؟ !

والذى هون الأمر على الشاعر علمه أنه سيتبع أخاه فى المصير
نفسه .

ومن هذا الشعر كذلك ما قالته ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها
فقد ظهر فى هذا الرثاء احساسها بالموت ، وتحدثت عن القبر ، مع
التعبير عن عاطفة الحزن التى استبدت بها على فراقه فقالت : (١٢)

بتل بناثا رسم قبر كانه على جبل فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا ونائلا وسورة مقدمام ورأى حصيف
فتى كان للمعروف غير عيوف
فقد طال تسليمي وطال وقوفى

الا قاتل الله الحشى كيف أضررت
فان لا تجبنى دمنة هي دونه

ثم تتمنى امكان فدائه ، اذن لفتدته بالالوف من الابل - وهى فدية
اقل مما ورد عند كعب بن سعد ، فقد ود أن يفدى أخاه بعينه وكلتا
يديه ، وهى فدية أثمن من ألف الابل - بلاشك .

ثم تصف الشاعرة أخاها بأنه كان شجاً لعدوه ، وكان للضعفاء
ملجاً ، وأنه كان حليف الندى فتقول :

فقدناه فقدان الربيع فليتنا دهمائنا بالوف
ومازال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدو أو لجاً لضعيف
حليف الندى ان عاش يرضى به الندى
وان مات لا يرضى الندى بحليف

ثم تخلع الشاعرة حزنها على أشجار الخابور ، وتعجب من
airyاقه وقد كان جديراً به الا يورق حزناً على أخيها ، وتتصور موته
سقوطاً للبدر وكسوفاً للشمس ، على نحو ما يفعل شعراء الرومانسية
في العصر الحديث ، تقول ليلي بنت طريف :

فيما شجر الخابور مالك مورقاً
كانك لم تجزع على ابن طريف
وللبدر من بين الكواكب اذ هوى
وللشمس همت بعده بكسوف

ثم تظهر في نهاية القصيدة صورة النعش يحمله القوم إلى
مثواه الأخير ، مشيعاً ببكاء الرجال وعويل النساء :

ولليث فوق النعش اذ يحملونه
إلى حفرة ملحوظة وسقوف
بكت تغلب الغلباء يوم وفاته
وأبرز منها كل ذات نصيف

وفي رثاء عمرو بن حممة الدوسى ، وهو أحد من كانت العرب
تتماشك اليه ، قال حاطب بن قيس (١٣) :

سلام على القبر الذى هم اعظمها

تحوم المغالى حوله فتسالم

سلام عليه كلما ذر شارق

وما استقطع من دجى الليل مظلم

فيما قبر عمرو جاد ارضا تعطفت

عليك مثل دائم القطر مرزم

تضمنت جسما طاب حيا ويميتا

فانست بما ضمنت في الارض معلم

فلو نطقت ارض لقال ترابها

إلى قبر عمرو الا زد حل التكرم

فلا يبعدنك الله حيا ويميتا

فقد كنت نور الخطيب والخطيب مظلم

وصورة القبر هي التي ملأت هذه الأبيات ، فالشاعر يحيييه
ويسلم عليه ، ويصور المغالي تحوم حوله وتحيط به ، ويستديم
عليه التحية كلما ذر شارق ، ويدعوه بالسقيا الدائمة .

والقبر في ذاته لا قيمة له ، لكن ما تضمنه القبر هو المقصود ، فقد
ضم ثراه رجلا طيبا ، وأصبحت بقعته معلما من معالم الأرض ، ولو
أن الأرض قدر لها أن تنطق لشهادت بالفضل لهذه البقعة وشرفها على

غيرها . ثم يدعو الشاعر للمرثى بعدم البعد ، وأن يبقى مذكوراً بعد موته كما كان مشهوراً في حياته ، فقد كان نوراً يضيء المظلمات ويكشف الكربارات .

وتركيز الشاعر على صورة القبر دليل على قوة احساسه بالموت ، وهو ما قصدت إلى إبرازه هذه الدراسة فيما اختارت من نماذج شعر الرثاء .

الفصل الثالث

الحكمة

شعر الحكمة هو مستودع الأفكار وخلاصة الآراء في قضايا الوجود والحياة والموت ، صاغها الشاعر الجاهلي ، صادرا عن نفسه وعقله ، معبرا عن قيم عصره وب بيئته وقبوته .

والموت قضية شغلت الإنسان في كل عصر وببيئة ، فليس شيء أخطر على الإنسان من الموت . هذا الحدث الذي يطفئ مصباح الحياة ، ويبعد الآمال ، وينزع الإنسان من أهله وماليه ودنياه .

وفي طبيعة البشر حب الحياة والتثبت بالعيش . يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . والذين يكرهون طول المكث في الدنيا لا يكرهونه ذاته ، وإنما يكرهون ما يصاحبه من مرض وعجز ، ولو كان مع البقاء سلامة لما كره أحد طول العمر .

لهذا أخذ الموت مكانا مميزة بين القضايا الكبرى التي تحدث عنها الحكماء وتأملها الشعراء .

ويبدو الموت في شعر الحكمة عند الجahليين أبرز القضايا التي تناولوها مما يدل على زيادة انشغالهم به عن غيره (١) .

(١) راجع الوصايا والحكم في الأدب الجاهلي : رسالة ماجستير ، أعداد محمد عبد الجواد فاضل - مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

وفي حديثهم عن الموت تناولوه من عدة جوانب ، ورصدوا مجموعه من الظواهر المتعلقة بهـ **فَتَحْدِثُونَا عَنْ** **عَقْدِيَّه** واتيانه على جميع الخلائق ، وعن تفاوت الآجال ، وعن كراهيـة الانسان للموت . وهم فى فى كل ذلك يصورون الموت طالبا والانسان مطلوبه ، أو صائدا يلقى شباكه على الناس ، فيصيـب منهم ما يريد . لأن سـهمـه لا يخطـء وقصده لا يخـيب .

وقد أدرك الجاهليـون أن هذا القدر - أعنـى الموت - ماض على الناس جميعـا ، وحاـول بعضـهم أن يـعتبر بـمن سـبـقهـ إلىـ هـذا المصـير المـحتـومـ علىـ نحوـ ما قالـ قـسـ بنـ ساعـدةـ (٢) :

فـيـ الـذاـهـبـيـنـ الـأـوـلـيـ

نـمـنـ الـقـرـونـ لـنـاـ بـصـائـرـ

لـمـوـتـ لـيـسـ لـهـ مـصـادـرـ

لـمـارـأـيـتـ مـوـارـدـ

يـمـضـيـ الـأـصـاغـرـ وـالـأـكـابـرـ

وـرـأـيـتـ قـوـمـيـ نـحـوـهـاـ

أـيـقـنـتـ أـنـىـ لـاـ مـحـالـةـ

حـيـثـ صـارـ الـقـوـمـ صـائـرـ

وهـذاـ اـمـرـؤـ الـقـيـسـ فـيـ لـحـظـةـ تـأـمـلـ يـدـركـ أـنـ الـمـنـايـاـ آـتـيـةـ عـلـىـ
سـائـرـ النـاسـ ، لـاـ تـفـرقـ بـيـنـ عـاقـلـ وـمـجـنـونـ أـوـ كـيـسـ وـأـحـمـقـ ،
تـلـكـ الـمـنـايـاـ فـمـاـ يـقـيـنـ مـنـ اـحـدـ

يـكـفـنـ حـمـقـيـ وـمـاـ يـقـيـنـ أـكـيـاسـ

ويرى طرفة بن العبد الموت مصاحبـا للانسان ، ملازمـا ايـاهـ
فيـ سـفـرـهـ وـاقـامـتـهـ ، مـنـفـرـاـ وـمـعـ اـقـرـانـهـ ، يـقـبـضـ المـرـءـ عـلـىـ أـىـ حـالـ
لـاـنـ الـمـوـتـ مـعـهـ حـيـثـماـ يـكـونـ . يـقـولـ طـرـفـةـ (٣) :

(٢) راجـعـ الـأـغـانـىـ : جـ ١٤ـ صـ ٤٠ـ بـ بـيـرـوـتـ .

(٣) دـيـوـانـ طـرـفـةـ تـحـقـيقـ دـ ٠ـ عـلـىـ الـجـنـدـىـ صـ ٢٣٧ـ مـكـتبـةـ الـأـنـجـلـوـ

المـصـرـيـةـ .

من كان في سفر فالموت صاحبه
 أو كان في حضر فالموت ياتيه
 وان مضى خمسة فالموت سادسهم
 وان مضى واحد فالموت ثانية
 ويقطن بشر بن أبي خازم الى ان سلامه المرء لا تدوم ، وان
 دامت فانها لا تحول بينه وبين الموت ، فيقول :
 وكل نفس امرئ وان سلمت
 يوما ستحسسو ميته جرعا(٤)

كما ان طول العمر والبقاء في الدنيا لا يشفع للمرء عند
 الموت ، فكل عمر ينتظر ميته ليفارق الدنيا . هذا ما عبر
 عنه أمية بن أبي الصلت في قوله :

فكل معمر لابد يوما وذى دنيا يصير الى زوال
 ويفنى بعد جدته وبيلى سوى الباقى المقدس ذى الجلال(٥)
 ومن وحى البيئة الجاهلية التي كثر فيها القتل - حربا أو غارة
 أو غيلة أو ثارا - الى حد يشبه الفوضى ، أتى تشبيه زهير بن أبي
 سلمى للمنايا بالناقة العشواء التي تخبط على غير نسق أو ترتيب ،
 وتضرب دون حكمة أو نظام ، فمن أصابته هلك ومن أخطأه نجا ،
 وذلك في قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
 تمته ومن تخطىء يعمر فيهم(٦)

(٤) ديوان بشر : تحقيق د. عزه حسن ص ١٢٤ - دمشق ١٩٦٠ .

(٥) ديوان أمية : ص ٤٩ - المكتبة الأهلية - بيروت .

(٦) ديوان زهير : ص ٨٦ - دار صادر - بيروت .

لَكُنْ زَهِيرًا يَدْرِكُ أَنَّ هَذِهِ النَّجَاهَا إِلَى أَجْلٍ ، فَالْمُوْتُ هُوَ الْمُصِيرُ
الْمُحْتَسَمُ لِكُلِّ حَيٍّ ، لَا يُسْتَطِعُ أَحَدٌ الْمُهْرَبُ مِنْهُ أَوْ الْفَرَارُ ، حَتَّى
لُورَامُ الصَّعُودُ إِلَى السَّمَاءِ ٠

وَمِنْ هَذِهِ أَسْبَابِ النَّاسِيَا يَئْلَمُ
وَانْ يَسْرُقُ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ (٧)

وَالشَّعْرَاءُ الْجَاهِلِيُّونَ يَجْمِعُونَ عَلَى الْقَسْوَلَ بِحَتْمِيَةِ الْمُوْتِ وَاتِّيَانِهِ
عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، وَأَنَّهُ يَاتِي بِغَفْتَةٍ مِنْ غَيْرِ مُوْدَعٍ ٠ وَهَذِهِ الْحَقَائِقُ
أَدْرِكُوهَا مِنْ رَؤُيَتِهِمْ لِحَالِ الْمُوْتِ مَعَ النَّاسِ ٠

يَقُولُ عَبْيَدُ بْنُ الْأَبْرَصِ (٨) :

وَلِلْمَرءِ أَيَّامٌ تَعْدُ وَقَدْ رَعَتْ
جَبَالَ النَّاسِيَا لِلْفَتَىِ كُلَّ مَرْصَدٍ
مِنْيَتِهِ تَجْرِي لِوقْتٍ وَقَصْرَهُ
مَلَاقِاتِهِ يَوْمًا عَلَى غَيْرِ مُوْدَعٍ
فَمَنْ لَمْ يَمْتَ فيَ الْيَوْمِ لَابْدَ أَنَّهُ
سَيَعْلَقُهُ حَبْلُ النِّيَّةِ مِنْ غَدٍ
فَقَلِيلٌ لِلَّذِي يَبْغِي خَلَافَ الذِّي مَضَى
تَهْيَا لِآخَرِيِّ مِثْلَهَا فَكَانَ قَدْ

فَانَا وَمَنْ قَدْ بَادَ مِنَا لِكَالَّذِي
يَرُوحُ وَكَالْقاضِيِّ الْبَتَاتِ لِيَفْتَدِي
وَتَبَدُّو رَؤْيَا عَبْيَدٍ صَائِبَةً مَتَفَقَّةً وَالْحَقُّ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ ، فَالْمَرءُ

(٧) الْسَّابِقُ ٠

(٨) دِيْوَانُ عَبْيَدٍ تَحْقِيقُ وَشْرَحُ دُهُوكِيِّ حُسْنَى نَصَارٍ ص ٥٦ - الْحَلْبَى ٠

أيامه في الدنيا معدودة ، والموت يتربص به انتهاء الأجل الذي لا يعرف وقته غير خالق الموت والحياة .

والذى لا يموت اليوم سيموت غدا ، وما أقرب اليوم من الغد فكل آت قريب ، وعلى هذا فما أقرب الأحياء من الاموات .

وقد صاغ عبيد بيته الأخير في صورة مستوحاة من بيته إذ شبه الموتى والآحياء بقوم سافر بعضهم آخر النهار أولئك الذين سبقو إلى القبور . وبالبعض الآخر يحزم أمتعته استعدادا للسفر في الصباح . أولئك الذين ينتظرون أجلهم وهو آت لا ريب .

حتى الفرسان الذين يخوضون غمار الحرب لا يبالون ، شغلتهم حقيقة الموت ، وحيرتهم حكمته ، عندما رأوه يخطف طفلا من مهده الآمن من كل خطر ، المحوط من أهله بالرعاية والحفظ ، ويمهل شيخا يعرض نفسه للمهالك ويشارك في الحرب . ها هو ذا عنترة ابن شداد يعبر عن ذلك في قوله (٩) :

يخوض الشيخ في بحر المنايا
ويرجع سالماً والبحر طام
وياتي الموت طفلاً في مهود
ويلقى حتفه قبل الفطام

ولقد كان ذلك خليقاً بأن يلقى في قلوب الفرسان كثيراً من الشجاعة ، فما دام الموت غير مرتبط بعمر ولا خطر ولا أمن ، فلماذا يخاف الفارس من الحرب ، ولماذا يرهب الموت فيها ، فقد يترك

الموت الرجل المخارب ويأتى على الطفل الصغير ، فاعبرة اذن بما قضاه الله وقدره ، ولهذا قال عثرة بن شداد أيضا :

يا عبلى اين من المنية مهربى

ان كان ربى في السماء قصاها (١٠)

وهذا الذى عرفه الجاهليون من أمر الموت اهتدوا اليه بالفطرة

وبالتجربة والمشاهدة والأخبار .

وكل الناس فى سائر البيئات والاعصور يعرفون تلك الحقائق ،

وعندما يصاحب هذه المعرفة ايمان قوى بالبعث والآخرة ويقين

بالحساب والجزاء يندفع الانسان للعمل الصالح طلبا لثواب الله

وجنانه ، ويصبح الموت عاملا من عوامل زيادة الخير فى الحياة .

والواقع أن الحياة الجاهلية كانت تفتقد الایمان القوى واليقين

الثابت بالآخرة ، باستثناء ومضات خافته كانت تضىء قلوب

المتحففين المستمسكين ببقاء دين ابراهيم - عليه السلام - ولم يكن

عدهم كبيرا بين العرب ، ولا تقوم الاشارات التى وردت فى شعر

أميمة ابن أبي الصلت وغيره من الشعراء الى اليوم الآخر والحساب دليلا

على نقض هذا القول ، لأن هذه الاشارات لا تدل على الایمان الراسخ

واليقين الثابت ، فأمية بن أبي الصلت قال عنه الرسول ﷺ « آمن لسانه

وكفر قلبه » وغيره كان وثانيا يعبد الاصنام ، وهم وان لم يفردوها

بالعبادة ، قدسوها اعتقادا بأنها تقربهم الى الله زلفى ، وكل ذلك

تختبط ، تنفى شواهد عن الجاهليين فى عمومهم أنهم كانوا يؤمنون

يقيينا بالبعث والجزاء .

ولهذا اندفع الفعل الجاهلى فى الاتجاه الآخر نتيجة لضعف

الایمان بالله واليوم الآخر او انعدامه ، مع التتحقق من فناء الدنيا

وانقضاء الأعمار . أعني تيار الفوز بالدنيا على أى وجه ومن أى طريق - وغالبا ما كان الشر هو الطريق الذى سلكه الجاهليون لادرك غايتهم من الدنيا .

ولقد اتخذوا من الموت ذريعة للافراط فى التمتع بما أتيح لهم من ملذات الحياة ، التي تمثلت فى استمتاعهم بالخمر وبالنساء ، واشباع جانب حب البطولة والفاخر بها عن طريق الحروب .

واقترنـت أفكارـهم عن الموت ودلائل انكارـهم للبعث بـحديثـهم عن هذه المـلـعـنـةـ الـتـىـ أـرـادـواـ اـنـتـهـابـهاـ قـبـلـ أنـتـفـوـتـهـمـ فـرـصـةـ الـحـيـاةـ .ـ وـلـعـلـ أـوـضـعـ مـثـالـ عـلـىـ ذـلـكـ مـاـ جـاءـ فـىـ مـعـلـقـةـ طـرـفـةـ بـنـ العـبـدـ اـذـ يـقـوـلـ :

الـأـيـهـذـاـ الـلـائـمـيـ أحـضـرـ الـوـقـعـ
وـأـشـهـدـ الـلـذـاتـ هـلـ أـنـتـ مـخـلـدـيـ

فـانـ كـنـتـ لـاـ تـسـطـيـعـ دـفـعـ مـنـيـتـىـ

فـدـعـنـىـ أـبـادـرـهـاـ بـمـاـ مـلـكـتـ يـدـىـ

فـلـوـلـاـ ثـلـاثـ هـنـ مـنـ لـذـةـ الـفـتـىـ

وـجـدـكـ لـمـ أـحـقـلـ مـتـىـ قـامـ عـودـىـ

فـمـنـهـنـ سـبـقـ الـعـاذـلـاتـ بـشـرـبـةـ

كـمـيـتـ مـتـىـ مـاـ تـعـلـ بـمـاءـ تـزـيدـ

وـكـرـىـ اـذـ نـادـىـ الـمـصـافـ مـجـبـاـ

كـسـيـدـ الـغـضـاـ نـبـهـتـهـ الـمـتـورـدـ

وـتـقـصـيرـ يـوـمـ الدـجـنـ ،ـ وـالـدـجـنـ مـعـجـبـ

بـبـهـكـنـةـ تـحـتـ الـطـرـافـ الـمـعـدـ

فـذـرـنـيـ أـرـبـوـيـ هـامـتـيـ فـيـ حـيـاتـهـاـ

بـسـلـعـمـ اـنـ مـتـنـاغـدـاـ اـيـنـاـ الصـدـيـ

كريم يروى نفسه في حياته
مخافة شرب في الممات مصدر
لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى
لكالطول المرحى وثنيةه باليد
متى ما يشا يوما يقدة لحتفه
ومن يك في جبل المنية ينقد
أرى قبر نحام بخييل بماله
قبر غوى في البطالة مفسد
ترى حثوتين من تراب عليهمما
صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيدا غدا . ما أقرب اليوم من غد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفذ (١١)

والشاعر في هذه الأبيات يدفع لوم لائميه الذين أخذوا عليه
افراطه في شهود اللذات وامتاع نفسه على المذهب الذي يراه .

(١١) راجع شرح المعلقات السابع للزوزنى ص ٤٨ وما بعدها . والتبريزى
ص ١٠٧ وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ص ٨٠
 قوله : وحدك : قسم ، والجد : الحظ . عودى : جمع عائد وهو
الزائر . النحام : الحرير البخيل . الحثوة : الكومة من التراب ،
يعتم : يختار .

والسؤال المعجز الذى ألقاه الشاعر على هؤلاء اللوم : هل أنت مخلدى ؟ هل تضمن لى الخلود فى الدنيا حتى أقتصر فى امتناع نفسى وأشباعها من المذاالت التى تريدها ؟

ان كنت أنها اللائم لا تستطيع تخليدى فى الدنيا - ولا أحد بالطبع يستطيع ذلك للشاعر ولا لغيره - فدعنى أتحدى الموت والفناء بانتهاب اللذة المتاحة من الدنيا - هكذا يتصور الشاعر أنه بانتهاب اللذة والاستمتاع بالحياة قدر استطاعته يبادر الموت ويغالبه .

ويعلن الشاعر أن حرصه على الحياة وكراهيته للموت إنما هما من أجل أمور ثلاثة يجد فيها سعادته ، وتلك الأمور هي : (شرب الخمر الجيدة المعتقة التي يعلوها الزبد عندما يضاف إليها الماء ، والكر للدفاع عن الجار على حصان قوى نشيط ، والاستمتاع بالمرأة الممثلة الجميلة) .

وفي وصف طرفة لهذه المذاالت حاول الشاعر أن يعرضها فى جوها الذى يروقه ويعجبه ، ويبلغ بها الدرجة العليا فى اشباع حاجته وارواء ظمه لما توفر لها من أسباب الفتنة ودواعى الجذب للشاعر وأمثاله .

فليس المقصود هو ادراك المذاالت الثلاث على أى وجه ، بل ادراكها على نحو مخصوص يجعلها فى النمط الممتاز الذى يعجب الشاعر ويمتعه .

وانظر الى صورة الشرب تجده شربا غير عادى ، بل هو شرب فيه سبق للعاذلات بما يوحى هذا السبق من تجاذب بينه وبينهن ، وانى لاتتصور هؤلاء العاذلات ، يداعبن الشاعر بعذله على الشرب ، فليس العذل من باب الجد والنصيحة ، بل هو ضرب من اللهو والتطرف والدلال . أما الخمر التي يشربها فهي كميت محممة اللون لاصالتها

وقدمها ، يضيف اليها بعض الماء فيعلوها الزبد . وكل هذه الاوصاف التي عددها الشاعر تضفي على صورة هذه اللذة مزيدا من ايحاءات جو المتعة الذي أسر لب الشاعر ، وجعله يحب الحياة ويكره الموت .

وانظر الى صورة كره التي وصفها وفرسه التي نعتها تجدها كذلك في المعرض الذي يجعلها في النمط الراقى لتحقيق المتعة ، فهو يخف للنداء ويلبى طلب المستغيث غير وان ولا كسول ، على فرس .

أما متعه الثالثة ، فقد استجمع لها الشاعر أطراف الوصف الموجى ببلوغها أرقى درجة من الامتناع لتكون ملائمة لمزاجه ، جديرة بأن يحب الحياة من أجلها ، فهو يلهم بالمرأة الجميلة المتلائمة تحت الخباء المدد ، يقصر بهذا اللهو يوم الشتاء المطر الذى يتعجب الناس من شدة مطره وغزارته ، ويختمنى من برده وغيمه ومطره بخلوته اليها تحت الخباء .

ولقد كانت الخمر والمرأة من أولى المتع التي حرصن الجاهليون على انتهايابها ، فقد روى الجاحظ :

أن امراً القيس سئل : ما أطيب عيش الدنيا ؟ فقال : بيضاء وعبوة ، بالطيب مشبوبة ، باللحم مكروبة .

وسئل الأعشى عن ذلك فقال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية من صوب غادمة (١٢) :

وبعد ما وصف طرفة لذاته التي لا يابه بالحياة الا من أجلها طلب من لائمه أن يخلن بينه وبين تلك اللذات ، ليروى نفسه منها

(١٢) طرفة بن العبد - حياته وشعره : ص ٤٦ - د . محمد علي الهاشمي عالم الكتب - بيروت .

قبل أن يموت فالذى ينعم بالدنيا هو الكريم الظافر ، والذى يحرم نفسه من متعها هو المحرم الذى لن يزيل حرمانه شيء لأنه لا متعة بعد الموت .

هكذا ظن طرفة . والموت الذى أراد الشاعر التغلب عليه بانتهاب الحياة ، وسبقه إلى لذاتها ، رأه مثل الحبل - ممدودا على ابن آدم - يربطه كما تربط الدابة ، وترسل في مرعاها ، وصاحبها ممسك بحبلها يردها به عندما يشاء ، فكذلك أمر المنية والناس ، يقاد المرء لحفلته عندما يشاء مقدر الموت ، ومن يك في حبل المنية لا يستطيع منه فكاكا .

ثم استحضر الشاعر صورة القبر فرأه حفرة توارى الإنسان بعد موته ، لا فرق بين غنى وفقير ، أو مسرف وبخيل ، فالقبر كُل قبر ليس الا كومة من تراب عليها بعض صفائح صم تضم جسم الإنسان ولا يظهر عليها أثر نعيم أو عذاب ، وكان الشاعر بهذا الوصف يريد أن يدلل على صواب مذهبه في امتاع نفسه واروائها من لذات الدنيا قبل أن تذهب إلى هذا المصير .

وهل يحرم نفسه من مذاذات الحياة وهو يرى الموت يهلك الناس الكريم منهم والبخيل على سواء؟!

ولقد أدرك الشاعر يقيناً أن الموت أعداد النفوس فلا مهرب منه ولا فرار ، ومن لم يمت اليوم يمت غدا ، وما أقرب هذا الغد . كما أدرك أن كل ليلة تفوّت تنقص من كنز عيشه ورصيد عمره حتى ينتهي ذلك الكنز - أفيضيه في الحرمان من أجل ارضاء لائمه الذي لا يملك دفع الموت عنه ولا يستطيع تخليده .

هذه رؤية طرفة التي قدمها في صورة جدلية ، تكشف عن عقيدته في أمر الموت والحياة ،

وتكرار الفعل (أرى) في الأبيات الأخيرة :

أري قبر نحام ٠٠٠ - تري حثوتين من تراب ٠٠٠ -

أري الموت يعتام الكرام ٠٠٠ - أري العيش كنزا ٠٠٠

يؤكد انشغال الشاعر بأمر الموت ، وطول نظره إليه وتفكيره

فيه ، كما يدل تعبيره بهذا الفعل (أرى) على أن عقيدته في الموت وأفكاره عنه لم يأخذها عن دين ولم ينقلها عن أحد ، ولم يرثها عن نحلة أو مذهب ، فهى مبنية على رؤيته وخبرته ، وتلك الرؤية لم تدرك من أمر الموت والقبر الا ما يظهر منها للعين ، وإن كانت العين صالحة لـ الشاعر بهذه الصورة الظاهرية ، فإنها غير صالحة لمعرفة كنه وحقيقة ما يحدث بعد الموت ، فذلك عالم آخر لا تدرك حقائقه بالحواس .

ولَا أظنَّ أَنْ طرفةَ بْنَ العِبْدَ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا كَانَ شَادًا ، فَلَقَدْ

كانت هذه عقيدة أكثر الجاهلين .

وبعد أن فرغ طرفة من بسط عقيدته في أمر الموت ، تحدث عن علاقته بابن عمّه مالك ، ثم فخر بنفسه وعدد خصاله ومآثره ، وفي نهاية القصيدة طلب من ابنة أخيه معبد أن تتعيّنه عند موته بما هو أهل وان تبكي عليه وتشق الحبيب من أجله .

فان مت فانعینی بما انا اهله

وشقى على الحبيب يا ابنة معبد

وفخر الشاعر بنفسه هنا وطلبه من ابنة أخيه أن تبكيه
دليل على تعلقه بالحياة ، وحديثه عن الموت على النحو الذي ذكر
دليل على حضوره في ذهنه وادراكه أن الموت مصير جميع البشر ،
مع انكاره للحياة بعده أوشكه في ذلك ، ولقد كان مصيبة في ادراكه ،
مخطئا في شكه وانكاره .

الباب الثالث

السمات الموضوعية والفنية لشعر الموت

الفصل الأول : السمات الموضوعية .

الفصل الثاني : السمات الفنية .

الفصل الأول

السمات الموضوعية

تشيع في شعر الموت عدة ظواهر تتعلق بالفكرة أو الموضوع ، وهي تمثل سمات يتصف بها هذا الشعر ، وهذه السمات هي :
أولاً : استعادة الماضي :

فى لحظات الضعف التى يواجه فيها الشاعر الموت أسيراً أو جريحاً أو مريضاً أو شيخاً ، يتذكر الماضى وما حفل به من أوقات السعادة ومظاهر القوة .

وطالعنا هذه السمة بوضوح في شعر رثاء النفس ورثاء الآخرين
وغالباً ما تكون في إطار من الموازنة بين حالي القوة والضعف،
والماضي والحاضر، والحياة والموت، في تعجب وتحسر شديدين.. وذلك
كما في قول أمير القيس:

كأنى لم أركب جواداً للذلة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسباً الزق الروى ولم أقل
لخيلى كرى كررة بعد اجقال

وقوله :
الـم انض المطى بكل خـرق
أمق الطـول لـماع السـراب
وأركب فـي الـهـام المـجرـحتـى
أنـال مـاـكـل القـحـم الرـغـابـ

وَكُمَا فِي قُولْ عَبْدِ يَغْوُثْ :

وَقَدْ كُنْتْ نَحَارَ الْجَزُورِ وَمَعْمَلَ الْمَطْرِ

وَأَمْضَى حَيْثُ لَا هُوَ مَاضِيَا

وَاعْقَرَ لِلشَّرْبِ الْكَرَامِ مَطْبِقِيَا وَاصْدَعَ بَيْنَ الْقِينَتَيْنِ رَدَائِيَا

كَانَى لَمْ ارْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلْ لَخِيلَى كَرَى نَفْسِيَ عنْ رَجَالِيَا

وَلَمْ أَسْبَأْ الزَّقَ الرَّوْيِ وَلَمْ أَقْلْ لَأَيْسَارَ صَدْقَ اعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

وَكُمَا فِي قُولْ عَمَرُو بْنَ قَمِيَّةَ :

وَإِذَا مَا رَأَى النَّاسَ قَالُوا : إِلَمْ تَكُنْ

جَلِيدَا حَدِيثَ السَّنِ غيرَ كَهَامِ

وَنَجَدَ مُثْلَ ذَلِكَ فِي قُولِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرَ :

وَلَقَدْ لَهُوتَ وَلِلشَّبَابِ لَذَادَةَ بِسَلَافَةِ مَرْجَتْ بِمَاءِ غَوَادِ

وَلَقَدْ غَدُوتَ لِعَازِبِ مَتَسَازِرَ أَحْوَى الْمَذَانِبِ مَؤْنَقِ الرَّوَادِ

وَفِي قُولِ عَبَادِ بْنِ شَدَادَ :

فَانْ تَرِينِي ضَعِيفَا قَاصِرَا عَنْقِي

فَقَدْ أَكَعَكَعَ عَنِي عَدْوَةَ الْعَادِي

وَقَدْ لَفِينِي بِاَشْوَابِ الرَّئِيسِ وَقَدْ

أَغْدَوْ عَلَى سَلَهَبِ الْبَوْحَشِ صَيَادِ

وَحَدِيثَ الْمَاضِيِّ وَمَا كَانَ يَزْخُرُ بِهِ مِنْ قَوْةٍ وَفَتْسَوَةٍ فِي مَعْرِضِ

الْتَّعْجَبِ وَالْتَّحْسَرِ دَلِيلُ عَلَى تَعْلُقِ النَّفْسِ بِالْحَيَاةِ ، وَتَعْبِيرُ عَنْ مَكْنُونِ

بِفَطْرَتِهَا فِي حُبِّ الْعِيشِ وَكَرَاهِيَّةِ فِرَاقِ الدُّنْيَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ

وأضحا فى رثاء النفس ، فان الشعراء يذكرون ماضى من يرثونهم ،
فى اشارة الى تبدل الاحوال وانقضاء الاجال ، وفى تنبئه الشاعر
لذلك دليل على ادراكه للمصير الذى ينتظره ، وأنه لاحق بمن يرثيه
لامحالة .

كما ورد ذكر الماضى والمقارنة بين الحياة والموت فى شعر
الحكمة الذى اتى به المولى موسى بن جعفر عليهما السلام قوله :

بشر بن أبي خازم :

وكل نفس امرىء وان سلمت

يوما ستحسون ميتة جرعا

فقد جمع بين السلامة والموت .

ويجتمع الامران في قول عنترة :

يخوض الشيخ في بحر المنايا

ويرجع سالما والبحر طام

ويأتى الموت طفلا في مهود

ويلقى حفته قبل الطعام

ففي البيت الأول صورة للحركة والسلامة والنجاة ، وفي البيت

الثانى صورة للموت والهلاك .

ثانيا : ذكر الأهل والأصحاب والرفاق :

وكما استعاد الشعراء ماضيهم وهم يواجهون الموت ، ذكروا أوطانهم
وأهلיהם وأصحابهم ورفاقهم وندبواهم في محاولة للتقوى بهم والائتماس ،
إذ يشعر الشاعر في لحظة سيطرة فكرة الموت عليه بكثير من
الضعف والوحشة ، فيلتمس في تذكره أهله وبناته عونا له على
ما يعيشه . هذا المرقس الكبير يخاطب صاحبيه :

(م ١٠ - الشعر الجاهلى)

يا صاحبى تلوما لا تعجلأ ان الرحيل رهين الا تعذلا
ويذكر أخوية انسا وحرملا :

يا راكبا اما عرضت فبلغها انس بن سعد ان لقيت وحرملا
ويخاطب افنون التغلبى صاحبه فيقول :

فطنا معرضنا ان الحسوف كثيرة
وانك لا تبقى بمالك باقىها

وخطاب عبد القيس بن خفاف ولده فقال :

اجبيل ان اباك كارب يومه
فاما دعيت الى العظام فافعل

وقال كعب الغنوى فى رثاء أخيه مخاطبا صاحبيه :

خبرتمانى انما الموت بالقرى
كيف وهدى روضة وكثيب

ووجه عبد يغوث الخطاب الى صاحبيه ونداماه فقال :

ala la tolomanii kifi laloom ma bia
فما لكما فى اللوم خير ولا ولينا
الم تعلم ان الملامة نفعها

قليل وما لومى اخي من شماليها
فيما راكبا اما عرضت فبلغهن

ندامائى من نجران الا تلقيها

ثاثاً : **الحضور القوى للمرأة :**
من الظواهر الراضحة فى شعر الموت الحضور القوى للمرأة فى

ذهب الشاعر وذكرها والحكاية عنها ، وقد ورد ذكر المرأة في
عدة نماذج هي :

(ا) نموذج المرأة الساخرة العاذلة المستهزلة ، كما في قول
أمرىء القيس :

فبعد اللوم عاذلتى فانى
ستكفينى التجارب وانتسابى
وفي قول عبد يغوث :
وتضحك مني شيخة عبشرية
كان لم ترى قبلى أسيرا يمانيا
وفي قول عباد بن شداد :

وتهزأ العرس مني أن رأت جسدي
احدب لم تبق منه غير أجлад

(ب) نموذج الزوجة الوفية والمحبوبة الأثيرة :

وذلك كما في قول عبد يغوث :
وقد علمت عرسى مليكة أنتى
انا الليث معدوا على وعاديا
وفي قول عبد القيس بن خفاف :
افاطم انى هـالـاك فـتـبيـنـى
ولا تجزعـى كل النساء يـئـيمـى
ولا أـنبـانـانـى حـرـ وجـهـكـ شـانـهـ
خـمـوشـ وـانـ كانـ الحـمـيمـ حـمـيمـ

وفي قول عنترة :

يا عبل اين من المنيه مهربى

ان كان ربى في السماء قضاها

(ح) الأبيّة الخبيبة التي ينتظر الشاعر منها بكاءه والحزن من

أجله ، كما في قول بشر بن أبي حازم :

اسائلة عميرة عن أبيها

خلال الجيش تعرف الركابا

الى أن يقول :

فمن يك سائلا عن بيت بشر

فان له بجنب الود ببابا

رهين بلى وكل فتى سبيلى

فاذرى الدمع وانتحبى انتحابا

وفي قول طرفة يخاطب ابنة أخيه :

فان مت فانعيني بما انا اهل

وشيقى على الجيب يا ابنة معد

وفي طلبهم من بناتهم البكاء عليهم التماس للتعزى عن الموت

فى حزن ذويهم وذكرهم ايامه .

(د) نموذج الام الرعوم :

وقد ورد ذكر هذا النموذج فى اطار المقارنة بين وفاء الام وغدر

الزوجة التي تتغير عواطفها نحو زوجها عندما تتغير أحواله ،

وي فقد قوته ومنزلته ، وذلك كما في قول صخر بن عمرو

الشريد :

أرى أم هسخر لا تمل عيادتى
وملت سليمى مضجعى ومكاني
فأى أمرىء ساوى بام حليلة
فلا عاش الا فى شقى وهوان

(ه) نموذج المرأة المتعة :

وقد ذكرت فى سياق المتع التى تغيرى بالحياة وتحببها ،
وترغب النفس فى الدنيا ، وتنفرها من الموت ، وذلك فى قول

طرفة بن العبد مثلاً :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد

وحضور المرأة فى شعر الموت على هذا النحو لا تختلف عليه
- فى رأى - عن علة ذكر الماضى وذكر الأهل والرفاق ،
 فهو تعبير عن تعلق النفس بالحياة ورغبتها فى استبقاءها بتذكر
عناصرها المهمة .

رابعاً : الحديث عن القبر :

وقد ذكر الشعراه القبر ووصفوه بوصفه البيت الأخير الذى
ينزله الانسان ، والمصير الذى ينتهى اليه ، وذلك كما فى قول
يزيد بن خذاق :

وارسلوا فتية من خيرهم حسبا
ليسندوا فى فسريح الترب اطباقى
وكما فى قول بشر بن أبي خازم :
فمن يك سائلا عن بيت بشر
فان له بحسب السرده باها

ثوى فى ملحد لابد منه كفى بالموت نايا واغترابا
وإنما فى قول عبد القيس بن حفاف :

ومشيد دارا لينزل داره نزل القبر وداره لم ينزل
وفى قول دويد بن زيد بن نهد :

اليوم ينسى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته
وفى قول المهلل :

سالت الحى أين دفنتموه فقالوا لى بسفح الحى دار
فسرت اليه من بلدى حيثا وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتي عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفار

وفى قول ليلى بنت طريف :

بتل بناثا رسم قبر كأنه على جبل فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا ونائلا وسورة مقدام ورأى حصيف
الا قاتل الله الحشى كيف اضمرت
فتى كان للمعروف غير عيوف
فان لا تجبنى دمنة هى دونه
فقد طال تسليمى وطال وقوفى

وفى قول حاطب بن قيس :

سلام على القبر الذى هم أعظمها
تحروم المعالى حوله فتسلم
سلام عليه كلما ذر شارق
وما استقطع من دجى الليل مظلوم

في قبر عمرو جاد ارضا تعطفت
عليك ملث دائم القطر مرزوم
تضمنت جسما طاب حيا وميتا
فانت بما ضمنت فى الارض معلم
فلو نطقت ارض لقال ترابها
الى قبر عمرو الا زد حل التكرم
وفي قول طرفة :
أرى قبر نحام بخييل بماله
قبر غوى فى البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهمما
صفائح صم من صفيح منضد

وهم فى تعبيرهم عن هذه الأفكار والمآمهم بتلك المعانى ،
يصدرون عن فطرتهم واحساسهم ، وعن خبرتهم المستمدة من واقع
بيئتهم ونظم عيشهم ، ولذا فقد اتسم تناولهم للأفكار بالقرب والوضوح
وعدم التعقيد وقلة التعمق ، فهم ليسوا أصحاب فلسفة ولا ورثة علوم ،
ونظم عيشهم كانت بدائية بسيطة ، وببيئتهم التى عاشوا فيها هى التى
أمدتهم بمعارفهم ، وهى التى وجهت عواطفهم وكانت آراءهم فى الوجود
والحياة والمصير .



الفصل الثاني

السمات الفنية

يتصف شعر الموت بعده سمات تميزه من حيث المعالجة الفنية عن غيره من ألوان الشعر الجاهلي ، وهذه السمات هي :

أولاً - الوحدة الموضوعية :

في بحثنا عن الوحدة في شعر الموت لا مندوحة لنا من اخراج شعر الحكمة من هذا الشعر في ذلك البحث ، لأن الحكمة التي تناولت الموت لم تنفرد بقصيدة أو مقطوعة - غالبا - وإنما كانت أبياتا متفرقة في ثنيا القصائد أو آخرها .

يبقى عندنا في هذا المبحث النمطان الآخران لشعر الموت ، وهما رثاء النفس ، ورثاء الآخرين ، وهذا النمطان يندرجان تحت عنوان واحد في أبواب الشعر العربي هو الرثاء .

وقد تميزت أشعار الموت في هذين النمطين بوحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي ، وهي تختلف في منهجها وبنائها عن المنهج العام للقصيدة الجاهلية، هذا المنهج الذي كان يقضى بتعدد الأغراض والموضوعات في القصيدة الواحدة ، وببدئها بمقعدة غزلية أو طلالية ثم الانتقال إلى الوصف ، ثم المدح - أو الفخر .. أو غير ذلك من الأغراض .

وطبيعة الرثاء هي التي فرضت هذا المنهج وتطلبت هذا البناء « فِيَ حَزْنٍ ، وَعَظَمِ الْمُصِيبَةِ ، وَالشَّعُورُ بِالْفَنَاءِ ، مِنْ أَصْعَبِ الْأَجْوَاءِ

التي تقييد النفس البشرية بقيودها ، فلا تدعها تنطلق الى اجواء أخرى كالنسيب أو الغزل «(١)» .

وقد أشار الناقد الكبير ابن رشيق الى ذلك في قوله :

« ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسبياً كما يصنعون ذلك في المديح والهجاء .. لأن الأخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمية » «(٢)» .

وفي قول ابن رشيق بوجوب انشغال الشاعر عند الحديث عن الموت بالحسرة والاهتمام ما يدل على أن بدء المرائي بالغزل معيب ، وأن خلط الرثاء والحديث عن الموت بموضوعات أخرى لا يليق ، ولا يقبح في الوحدة الموضوعية والنفسية التي نسبتها لشعر الموت في نمطيه (رثاء النفس ورثاء الآخرين) ما ألم به الشعراء من حديث عن ماضيهما فيما يشبه الفخر ، أو ماضى من يرثونهم فيما يشبه المديح ، إذ أن هذا الحديث مرتبط أشد ارتباط بما قصد اليه الشعراء من تعبير عن الحسرة والألم ، والتعجب من تبدل الأحوال وتغيرها .

وهو في الوقت نفسه اعلاء للذات وثبتت للنفس وتعزية وقوية واقناع ، حتى لا تتنزق وتنهار أمام عاصفة الموت . والأمر كذلك في حديثهم عن السنة الدائمة في موت الناس جميعاً ، وتمثيلهم بموت السابقين ، لا يعد شيء من ذلك خروجاً على وحدة الموضوع أو على وحدة الجو النفسي .

وحسب هذا الشعر أن يتمثل فيه هذا القدر من الوحدة ، وأظن

(١) رثاء النفس بين عبد يغوث ومالك بن الريب ص ٧٥ د. ابراهيم
الحاوى .
(٢) السابق ص ٢٥

أنه من التعسف أن يبحث عن وحدة أعقد من ذلك هي ما يسمى في النقد الحديث بالوحدة العضوية ، وهي تستدعي تماسكاً بين الأفكار والأبيات وترتيبها منطقياً يجعل أبيات القصيدة متلاحمة حتى ليصعب تغيير مكان بيت أو حذفه أو تقديمها أو تأخيره . فالمشاعر التي تستبدل بالشاعر ، ويعبر عنها لا تتيح له فرصة التدقيق والترتيب والتنظيم حتى تخرج قصيده على النحو الذي يريد النقد الحديث الداعي إلى الوحدة العضوية .

ثانياً - الصدق في العاطفة :

لا شك في أن الشاعر عندما يعبر عن موقفه في مواجهة الموت رائياً نفسه أو رائياً غيره ، أو مصورة رأيه واعتقاده في أبيات من الحكم بشان هذا القدر الجارى على الناس جميعاً ، يعايش تجربته أصدق وأتم ما تكون المعايشة ، حتى تملك عليه تجربته فكره وحواسه ، لأن جو الحزن في هذا الموقف يملأ على الشاعر وجданه ويحيط به من كل جانب ، والتجربة هنا تجربة شخصية تنصرف داخل الشاعر ، ويخلص لها ، ومنبعها هو احساس الشاعر بالغرابة والفناء في مواجهة الموت .

وإذا كانت العاطفة تحتمل الصدق والكذب في أغراض القول المختلفة كال مدح والهجاء والغزل والفاخر ، فإنها هنا لا تحتمل غير الصدق ، إذ كيف يزور الإنسان مشاعره أمام نفسه ، وهو يواجه الموت يصرعه ، أو يصرع أحد أقاربه الأدرين - الأخ أو الابن أو الصديق ؟ !

إن شعر الموت يفيض بالصدق النفسي الذي يحسه المرء في كل بيت وفي كل جملة ، فليس الموقف موقف ادعاء زائف ، وليس هنا عطاء يخطف بصر الشاعر ويخلب لبّه ، فيغريه بالكذب ، وليس الدافع إلى هذا الشعر رهبة من ملك أو أمير أو غيرهما تنجي منها

المقالة والمجاملة ليتجنب الشاعر البطش ، ولو جانب الصدق في مدحه وتملقه .

وليس الدافع هنا كذلك أرادة الانتصار للقبيلة والاعلاء من ذكرها مما يدعو إلى التزييد والادعاء . كما يحدث في الفخر ، وليس هنا رغبة في التشفي بالحط من شأن الآخرين ورميهم بالثالب - حقاً أو باطلًا - كما يحدث في الهجاء .

ان الشاعر في تأمله لحقيقة الموت وتعبيره عن رأيه فيها ، واحساسه بها يواجه قوة لا تنفع معها مراوغة ولا مناؤة ، ولا تشفع عندها مجاملة ولا تملق ، ولا يجد أمامها كذب أو ادعاء .

انه في هذه الحالة لا يجد أمامه غير التسليم والخضوع في طواعية وصدق ، ينبعثان من أعماق نفسه الكسيرة العاجزة أمام هذا القدر الجبار .

وهل يخفى صدق العاطفة في قول أمرئ القيس :

الى عرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبني شبابى
ونفسي سوف يسلبها وجرمى فيلحقنى وشيكًا بالتراب
أو في قول بشر بن أبي خازم :

فمن يك سائلا عن بيت بشر فان له بحسب الرده ببابا
رهين بلى وكل فتى سيلى فأذري الدمع وأنتحبى انتحابا
ثوى في ملحد لابد منه كفى بالموت نايا واغترابا
أو في قول عبد يغوث :

فيما راكبا أما عرضت فبلغن ندامى من نجران ان لا تلاقينا
وممثل ذلك كل ما قيل في رثاء النفس :

وهل يخفى الصدق في قول كعب بن سعد الغنوبي :

فخبرتمني إنما الموت بالقرى فكيف وهذى روضة وكثيب

أو في قول سعدي بنت الشمردل في رثاء أخيها :

غادرته يوم الرصاف مجندلا خبر لعمرك يوم ذلك أشنع

أو في قول ليلى بنت طريف :

فيما شجر الخابور مالك مورقاً كانك لم تجزع على ابن طريف

ومثل ذلك كل ما أوردناه من رثاء الآخرين .

بل هل يخفى الصدق في قول زهير :

ومن هاب أسباب المنيا يينله وان يرق أسباب السماء بسلم

أو في قول طرفة :

لعمرك ان الموت ما اخطأ الفتى لكالطول المرخي وثنيةه باليد

أو في قول عنترة :

يا عبل اين من المنية مهربى ان كان ربى في السماء قصاها

ومثل ذلك كل أبيات الحكمة التي نطقوا بها في أمر الموت ،

لأن النفس في معالجة هذا الأمر لا تجد طريقا آخر غير الصدق البريء

من كل شائبة ، به تطرح النفس همها وتزيل كدرها ، فتظهر على حقيقتها

دون خباء ، ومن أجل هذا الصدق عد أسلفنا شعر الرثاء أجود

الشعر ، فقد روى الجاحظ نقالا عن الباهلي أنه قيل لاعرابي : مبابا

المراشى أجود أشعاركم ؟ قال : لأننا نقول وأكبادنا تحترق (٢)

(٢) انظر رثاء النفس بين عبد يغوث ومالك بن الريب ص ٢٢

وذكر البيهقى فى المحسن والمساوئ أنه قيل لأبى عبيدة :
ما أجدو الشعر عندكم ؟ فقال : النمط الأسود . يعنى المراثى (٤) .

ثالثاً - وضوح الألفاظ وسهولة الأساليب :

أدوات الشاعر هى الفاظ اللغة وتركيبها ، وطرق التصوير وأساليبه ، بها يعبر الشاعر عن نفسه ويعلن ما فى ضميره ، وبها يصور دقائق فكره وخلفيات مشاعره .

وبالنظر فى الألفاظ التى استخدمها الشعراء ، والأساليب التى سلكوها للتعبير عن احساسهم بالموت ، نجدها الفاظا سهلة واضحة، قلما تجنب الى اغرب او غموض ، وأساليب مستوية صافية لا التواء فيها ولا تعقيد .

ومرد ذلك الى أن الشاعر فى حديثه عن الموت يصدر عن فطرته من غير تحسين ولا تزيين ، والفكرة التى تشغله لا تترك له مجالا للتحكيم والاختيار ، فيعبر عن نفسه باقرب الألفاظ وأسهل التركيب وقد أضفى هذا الواضح على شعرهم فى الموت مزيدا من الجمال .

« ان الشعر الذى يصدر عن الواقع النفس بكل ما فى هذه النفس من بساطة الشعور ورقة الحال لا يدهش أن تأتى الفاظه سهلة بسيطة موحية » (٥) .

رابعاً - غلبة ضمير المتكلم :

يكثـر استخدام ضمير المتكلم فى شـعر الموت ، ويترـدد أكثر من غيره من الضـمائر ، ويبدو أن التجـربـة الذـاتـية فى هـذا الشـعـر هـى التـى

(٤) السابق ص ٢٢

(٥) السابق هـ ٢٦

افتضلت ذلك ، فامرؤ القيس مثلا يستخدم ضمير المتكلم أكثر من عشرين مرة في أبيات لم تتجاوز الثلاثة عشر بيتا في قصيده التي يقول فيها :
ارانا موضعين لامر غريب ونسحر بالطعام وبالشراب
وفى قصيدة عبد يغوث لا يكاد بيت يخلو من ضمير المتكلم ،
واستخدم الأسود بن يعفر ومخارق بن شهاب وصخر بن عمرو الشريد
ويزيد بن خذاق ضمير المتكلم في الشعر الذي رثوا به أنفسهم كثيرا .

وبعض الشعراء راوح بين استخدام ضمير المتكلم وضمير الغائب في
رثاء النفس ، لكن ضمير الغائب يدل على الشاعر أيضا على طريقة
التجريد ، فلا يخرج في حقيقته عن حال التكلم ، وذلك في مثل قول
بشر بن أبي خازم :

فمن يك سائلا عن بيت بشر فان له بجنب الرده ببابا
وفي قول دويد بن زيد بن نهد :
اليوم بيمنى لدوديد بيته لو كان للدهر بلى أبليتها
وقول المرقش :

من مبلغ الأقوام ان مرقشا
أمسى على الأصحاب عبئا مثقلأ
وفي رثاء الآخرين استخدم ضمير المتكلم بكثافة كذلك ، فكعب بن
سعد الغنوبي يعبر به سبع مرات في ثمانية أبيات ، كما لا تخلو قصيدة
المهلل في رثاء أخيه من هذه الكثافة ، فهو مثلا يقول :

اهاج قـذاـة عـيـنـى الـادـكار
هدـوعـا فالـدمـوع لـها انـهـدار
كانـالـليـل لـيـس لـهـ نـهـار
وابـكـى والـنجـوم مـطـلـعـات

وهكذا الى آخر الأبيات .

ويشيع ضمير المتكلم في قصيدة سلمة بن يزيد التي رثا بها أخيه :

أقول لنفسي في الخلاء الوميهيا .
لله الوبييل ما هذا التجلد والصبر
الا تفهمين الخبر ان لست لاقيا
وكنت اذا يأتى به بين ليلة

ولا يختلف شعر الحكمة في هذه الظاهرة عن رثاء النفس ورثاء الآخرين
فقد استخدم الشعراء ضمير المتكلم ، في تعبيرهم عن رؤيتهم للموت
واحساسهم به . فزهير بن أبي سليمي يقول :

رأيت المنايا خطط عشاوا من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم
ويقول عنترة :

يا عبل أين من المنية مهربى ان كان ربى في السماء قضاها
وقال قس بن ساعدة :

لما رأيت مواردا الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصغر والأكبر

إلى آخر الأبيات :

وقال طرفة :

فذرني أروى هامتي في حياتها
أرى قبر نحام ٠٠٠-
أرى الموت أعداد النفوس ٠٠٠^٠
إلى آخر الأبيات .

خامساً - شیوع أسلوب الاستفهام :

من الطواهر الواضحة في شعر الموت شیوع أسلوب الاستفهام
وهو استفهام مجازي يؤدي معانی التعجب والتحسر والنفي والانكار .

بیدا يزید بن خذاق أبياته في رثاء نفسه باستفهام يريد به النفي
حيث يقول :

هل للفتن من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق
وأدى الاستفهام معنى التعجب في قول همرو بن قميئه :

رمتنى بنسات الدهر من حيث لا أرى

فكيف بمن يرمى وليس بـ رام

وإذا ما رأى الناس قالوا لم تكن
جلبيدا حديث السن غير كهام

كما أدى معنى التمني في قول المرقش :

من مبلغ الأقوام أن مرقاشا أمسى على الأصحاب عيناً مثلاً

وأريد به التعجب والانكار في قول سعدى بنت الشمردل :

وأبیت لیلی کله لا اھجع
هلکوا وقد آیقت ان لن یرجعوا
امن الحیوادث والمنیون اروع
افلیس فیمن مضی لى عبرة
وفي قول سلمة بن يزيد :

اقول لنفسی في الخلاء الومها لك الويل ما هذا التجدد والصبر
الا يتهمین الخبر ان لست لاقیا

اخى اذا ما اتى من دون اکفانه القبر

وفي قول لیلی بنت طريف :

الا قاتل الله الحشی کيف افسمرت
فیتی كان للمعروف غير عیوف
(م - ١١ - الشعر الجاهلي)

في شجر الخابور مالك مورقا **كأنك لم تجزع على ابن طريف**
وهكذا وظف الشعراء أسلوب الاستفهام في إداء المعانى المناسبة
للتجربة التي أرادوا التعبير عنها .

سادساً - واقعية الصورة :

اعتمد شعر الموت - غالباً - على التعبير المباشر ، وقللت فيه الصور التخييلية كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، وكثرت فيه الصور الكلية النفسية التي ترمي إلى بيان المشاعر على حقيقتها ، ووصف اثر الموت في نفس الشاعر واحساسه به .
 ولأن حقيقة الموت تسمو فوق كل تصوير وتعجز أي خيال ، استخدم الشعراء الأساليب المباشرة ، ولم يلجأوا إلى الصور الجزئية المغایالية إلا في إطار محدود ، كما في قول أمير القيس :

واعلم أننى عمما قليل سانشب فى شباب ظفر وناب
يقصد المنية التي صورها وحشا مفترساً ذا ظفر وناب .

وكما في قول عبيد :

وللمرء أيام تعد وقد رعت جبال المنايا للفتى كل مرشد
وقول عنترة :

يخوض الشيخ في بحر المنايا **ويرجع سالماً والبحر طام**
وقول طرفة :

لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى **لكالطول المدى وثنيةه باليد**
وقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصيب
تمته ومن تخطى يقدر فيه حشر

فهذه صور جزئية اعتمدت الخيال طريقاً لها فيما تضمنته من تشبيه أو استعارة ، وفيما عدا ذلك عبر الشعراء عن رؤيتهم للموت واحساسهم به عن طريق الصور النفسية الكلية المباشرة ، التي لم تصطنع التخييل .

ولم تقلل هذه المباشرة من جمال هذا الشعر ، ولم تغض قلة الخيال فيه من قدره ، فصدق العاطفة ودقة الوصف وايحاءات الالفاظ وعفوية التعبير ، كفلت لهذا الشعر أسباب جماله وجودته وخلوده .

ولا أدل على ذلك من استحسان نقادنا القدماء المشهود لهم بالذوق السليم والرأي السديد لكثير من نماذج هذا الشعر ، فقد استحسن الأصمى وأبن قتيبة والقرشى والقالي قصيدة كعب بن سعد الغنوى ، ورووها . واستحسن المفضل وأبن عبد ربه وغيرهما قصيدة عبد يغوث ورووها .

كما استحسنوا أشعار امرئ القيس وطرفة وعبيد وبشر بن أبي خازم ويزيد بن خاذق وغيرهم من تقدم الكلام عنهم .

ومضى على هذا الاستحسان أجيال متتابعة يتمثّلون بهذا الشعر ويروونه ، ويجدون فيه أصدق تعبير عن العاطفة الإنسانية عندما تهتز للموت واقعاً أو فكرة .

وبحسب هذا الشعر ذلك وأقل منه .



الخاتمة

كانت هذه رحلة ، حاولت خلالها استكناه فسماير الشعرا فى العصر الجاهلى ، وتحسس مشاعرهم ، والتجسس على سائرهم والتعرف على أفكارهم وخواطرهم ، وهم يواجهون الموت عندما كان يحضر أحدهم جريحا أو أسيرا أو مريضا ، أو يستحضره أحستهم أو قاتل التفكير والتامل والاعتبار .

ولم تكن الرحلة سهلة ميسرة ، ولكنها مع ذلك كانت مفيدة وممتعة ، إذ صدقـت ما كنت أعتقدـه من جـتمـية اـنشـغالـ الشـاعـرـ الجـاهـلـىـ بأـمرـ الموـتـ ، واحـساسـهـ بـهـ - عـلـىـ الرـغـمـ مـاـ قـالـوهـ فـيـ الشـجـاعـةـ وـالـأـقـادـامـ وـعـدـمـ الـبـلـاـةـ بـالـمـوـتـ - مـاـ يـظـنـ مـعـهـ أـنـ اـحـسـاسـهـ بـهـ كـانـ ضـعـيفـاـ وـأـنـ اـشـغـالـهـ بـأـمـرـهـ كـانـ قـلـيلاـ .

ولقد حققت هذه الدراسة - بحمد الله - نتائج تهون من أجلها المشقات ، وهذه النتائج هى :

أولا : الاهتداء الى الدوافع التي ضاعفت من قلق الشاعر الجاهلى من الموت وزادت احساسه به ، والتى تمثلت فى قسوة البيئة ونظم العيش وظروف الحياة .

ثانيا : ادراك اثر الدين الصحيح والعقيدة السليمة فى ارضاء النفس ، وتقرير أن الجاهليين افتقدوا الرضا والطمأنينة بسبب افتقادهم الدين الصحيح .

ثالثا : احصاء الشعرا الذين رثوا أنفسهم ، والترجمة لهم وقد بلغوا أربعة عشر شاعرا ، أكثرهم من المغموريين .

رابعاً : لست الدراسة مواطن الاحساس بالموت عند الشعراء الجاهليين في غرض الرثاء والحكمة ، وآوردت النصوص الناطقة بهذا الاحساس .

خامساً : كشفت الدراسة عن مجموعة من الخصائص الموضوعية والفنية التي اتسم بها شعر الجاهليين في موضوع الموت .

هذه هي أهم النتائج التي حققتها هذه الدراسة ، فان كانت جديرة بأن تشفع لها بالقبول ، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وان كانت غير كذلك ، فلا تحول ولا قوة الا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
 - ٢ - الأصممعيات - للأصممعى - بيروت - الطبعة الخامسة
 - ٣ - الأغاني - لأبي الفرج الأصفهانى - دار عز الدين للنشر - بيروت
 - ٤ - بشر بن أبي خازم - حياته وشعره
- رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة - اعداد
حسن احمد عبد السلام
- ٥ - تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات - وزارة المعارف المصرية
الطبعة ٢٥
 - ٦ - تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي
د. شوقي ضيف - دار المعارف - الطبعة الثامنة
 - ٧ - تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت
 - ٨ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - د. احسان عباس -
دار الثقافة - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
 - ٩ - جغرافية شبه الجزيرة العربية - د. محمود طه أبو العلا
الأنجلو المصرية ١٩٧٧
 - ١٠ - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب
السيد أحمد الهاشمي - المكتبة التجارية - ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
 - ١١ - خزانة الأدب - للبغدادي - تحقيق عبد السلام هارون -
الخانجي بالقاهرة
 - ١٢ - ديوان أمية بن أبي الصلت - المكتبة الأهلية - بيروت
 - ١٣ - ديوان بشر بن أبي خازم - تحقيق د. عزه حسن - دمشق - ١٩٦٠
 - ١٤ - ديوان زهير بن أبي سلمي - دار صادر - بيروت

- ١٥ - ديوان عبيد بن الأبرص - تحقيق وشرح د. حسين نصار - الحلبي
- ١٦ - ديوان عنترة بن شداد
- ١٧ - ديوان طرفة بن العبد - تحقيق د. على الجندي
مكتبة الأنجلو المصرية
- ١٨ - ديوان النابغة دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٩ - رثاء النفس بين عبد يقوث الحارثي ومالك بن الرزيب د. ابراهيم الحاوي - الرسالة - بيروت
- ٢٠ - الرثاء في الشعر العربي - د. محمود حسن أبو ناجي
دار الحياة - بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
- ٢١ - شرح القصائد المشهورات - لابن النحاس
دار الكتب العلمية - بيروت
- ٢٢ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر بن محمد القاسم الأنصارى - تحقيق عبد السلام هارون
دار المعارف
- ٢٣ - شرح القصائد العشر للتبريزى ضبطه وصححه عبد السلام الحوفي - دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ
- ٢٤ - شرح المعلقات السبع للزووزنى - المكتبة التجارية بالقاهرة
- ٢٥ - شرح المفضليات للتبريزى - تحقيق على محمد البجاوى
مكتبة نهضة مصر بالقاهرة
- ٢٦ - شعر بنى تميم فى العصر الجاهلى جمع وتحقيق د. عبد الحميد محمود المعينى - منشورات نادى القصيم الأدبى ١٤٠٢ هـ
- ٢٧ - شعراء بنى قشير فى الجاهلية والاسلام د. عبد العزيز محمد الفيصل - التحلبي ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

- ٢٨ - الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق د. مفید قمیحة وزرزور -
دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٩ - الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث
د. نصرت عبد الرحمن - بغداد
- ٣٠ - العقد الفريد لابن عبد ربه - دار الكتاب العربي - بيروت
- ٣١ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام : تحقيق محمود شاكر .
- ٣٢ - طرفة بن العبد - حياته وشعره - د. محمد على الهاشمي
عالم الكتب - بيروت .
- ٣٣ - قلق الموت - د. أحمد محمد عبد الخالق - عالم المعرفة - الكويت
- ١٩٧٨ م
- ٣٤ - معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار بيروت - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
- ٣٥ - الوصايا والحكم في الأدب الجاهلي
رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة
إعداد محمد عبد الجود فاضل

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	الباب الأول : عوامل الاحساس بالموت عند الجاهليين
٩	الفصل الأول : طبيعة بيئة الصحراء
٣١	الفصل الثاني : الحروب
٤٣	الفصل الثالث : الرحلات
٤٩	الفصل الرابع : افتقادهم الدين الصحيح
٦١	أنماط شعر الموت في العصر الجاهلي
٦٣	الفصل الأول : رثاء النفس
	الشعراء الذين رثوا أنفسهم
٦٥	١ - أمرؤ القيس
٧٠	٢ - بشر بن أبي خازم
٧٣	٣ - عبيد بن الأبرص
٧٥	٤ - عبد يغوث الحارثي
٨١	٥ - عمرو بن قميئرة
٨٤	٦ - الأسود بن يعفر
٩٢	٧ - يزيد بن خذاق
٩٦	٨ - صخر بن عمرو الشريد
٩٩	٩ - مخارق بن شهاب
١٠٠	١٠ - عباد بن شداد

الموضوع	
الصفحة	
١١ - عبد القيس بن خفاف ١٠٢	
١٢ - دويد بن زيد بن نهد ١٠٦	
١٣ - أفنون التغلبي ١٠٧	
١٤ - المرقفن الأكبر ١١٠	
الفصل الثاني : رثاء الآخرين ١١٤	
الفصل الثالث : الحكمة ١٢٧	
الباب الثالث ١٣٥	
السمات الموضوعية والمفنية لشعر الموت ١٤١	
الفصل الأول : السمات الموضوعية ١٤٧	
أولاً : استعادة الماضي ١٤٣	
ثانياً : ذكر الأهل والأصحاب والرفاق ١٤٥	
ثالثاً : الحضور القوى للمرأة ١٤٦	
رابعاً : الحديث عن القبر ١٤٩	
الفصل الثاني : السمات الفنية ١٥٣	
أولاً : الوحدة الموضوعية ١٥٣	
ثانياً : صدق العاطفة ١٥٥	
ثالثاً : وضوح الألفاظ وسهولة الأساليب ١٥٨	
رابعاً : غلبة ضمير المتكلم ١٥٨	
خامساً : شيوع أسلوب الاستيفهام ١٦١	
الخاتمة ١٦٥	
المصادر والمراجع ١٦٧	

الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	الصفحة	الؤسطر
لم	له	١٧	١٥
ولذا الـ	هـذا الـ	١٨	٣
للـهـضـار	الـنـضـارـه	٢٤	٤
تـخـمـع	تـمـخـعـ	٢٤	٢١
أوـتـحـتـ	أـوـتـحـتـ	٢٧	١١
آلـ	ـآلـ	٢٧	١٣
آلـ	ـآلـ	٢٧	٢١
بنـ	ـبـمـ	٢٨	١٨
علىـكـذاـوـتـبـضـ	ـعـلـىـكـذاـوـتـبـضـ	٣٧	١
قـشـيرـأـوـ	ـقـشـيرـأـوـ	٣٨	١
يـدـعـوـ	ـيـعـوـ	٤	١٣
فتـذـكـرـابـنـتـهـ	ـفـتـذـكـرـابـنـتـهـ	٧٠	٧
مـكـرـ	ـمـكـرـ	٧٠	٨
بـسـيلـ	ـبـسـيلـ	٨٧	٣
ـالـعـجـبـ	ـالـعـجـتـ	٩٠	١٥
ـمـهـاجـرـ	ـمـهـاجـرـ	٩١	١١
ـلـيـهـونـواـ	ـلـيـهـونـواـ	١٠١	٥
ـوـيـدـرـكـاهـ	ـوـيـدـرـكـوهـ	١١٢	١٦
ـمـرـمـلـيـنـاـ	ـمـرـمـلـيـنـاـ	١١٦	١٢
ـبـالـقـرـىـ	ـبـالـقـوـىـ	١١٧	١٣
ـتـلـقـانـاـ	ـتـلـقـانـاهـ	١٢١	١٤
ـوـيـبـدـهـ	ـوـيـبـدـوـ	١٢٧	٩

الصواب	الخطأ	الصفحة	الؤسٹر
فرس قوية	فرس	١٣٦	٦
رعوبية	وعبوبة	١٣٦	١٦
فبعض	فبعد	١٤٧	٥
لينزل	ليترك	١٥٠	٣

توزيع دار اللواء
٦٤١٨٠٧

رقم الاليداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٩٩١ / ٣٢٤٩

أ. د. محمد عبد العليم

٧ - قرطاجنة

**مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر**